صوت النساء

صحيفة تصدر كل اسبوعين تعنى بقضايا المجتمع

October NO 299

١٦ تشرين أول العدد ٢٩٩

2008

معاً من أجل التحرير... معاً من أجل بناء الوطن

لروح الراحلة...

ستبقين بيننا...
شمعةً تضيء لنا الطريق.

طاقم شؤون المرأة

مها نصار يغيبها الموت...

صوتنا

قائدة لم تفقد الأمل

كثير من التعريفات وصفت القائد، بعضها أخذ بالسمات الشخصية الكارزماتية، وبعضها أخذ بالسلوك الذي يقوم به القائد في ظروف معينة، وبعضها اعتمد على تناغم صفات القائد مع مواقف وأوضاع معينة. لكن أهم ما يميز القائد/ة هو العمل مع الآخرين كي يحققوا الهدف المشترك وكل يشعر بأن ما تحقق هو إنجازه.

هذا ما ميز مها مستكلم نصار، القائدة التي بنت مؤسسة نسوية بل مؤسسات، وبنت كوادر نسوية وركزت بشكل خاص على إعداد كوادر شابة تحمل الراية، وهمها في ذلك استمرارية العمل وديمومته.

مها نصار قائدة اكتسبت احترام القاعدة النسوية والجماهيرية. حملت الهم النسوي والهم الوطني وزاوجت بينهما. لم يشغلها النضال الوطني عن ضرورة التغيير الإجتماعي، ولم ينسها انشغالها بالعمل النسوي عن النضال ضد الإحتلال وعن رفع راية حق العودة. ولم يشغلها الهم الوطني والنسوي عن رعاية أسرتها وتنشئة أبنائها وبناتها على حب الوطن، واحترام الآخرين.

مها نصار قائدة تعرف كيف تستمع للآخرين، وهذه سمة هامة ومؤشر على مدى احترام القائد للآخرين. كانت تبحث دائماً عن قواسم مشتركة مع من يختلف معها. وتجربتها في طاقم شؤون المرأة وفي الإتحاد العام للمرأة الفلسطينية أبلغ دليل على قدرتها على العمل الوحدوي في ظل الإختلاف.

مها نصار قائدة نسوية بحق، لأنها لم تعتمد على موقعها لتقود، بل على محبة الآخرين واحترامهم وتقديرهم لها، وقد شكلت للقيادات الشابة نموذجاً صلباً يحتذى.

رغم شدة مرضها، لم تفقد الأمل، بل تحدته، وحصلت على شهادة الماجستير من جامعة بيرزيت، وكانت فخورة بما حققته. وسجلت بذلك طريقة غير اعتيادية في التعامل مع المرض. عملت دون كلل وكأنها تسابق الموت فأعطت حتى الرمق الأخير، كأنما تسن نمطاً مغايراً للتعامل مع المرض والموت. لم تشتك، وظلت تربي الأمل لمن يحيطون بها، حتى أننا لم ننتبه إلى أن أيامها معنا أوشكت على الإنتهاء، فصارت رمزاً للنضال والعطاء، والتبشير بحياة أفضل.

مها مستكلم نصار ستبقى حية معنا فكراً وممارسة.

طاقم شؤون المرأة

في مواجهة "تأنيث الفقر" عربيا!

علي ناصر

الحروب والاحتلالات والنزاعات والعنف الذي اجتاح مناطق واسعة من العالم العربي خلقت بؤراً للتوتر والفقر الفاحش في المنطقة، والتي شكل الأطفال والنساء الغالبية العظمى من ضحاياها، اذ طال الفقر والتهميش نسبة كبيرة من النساء العربيات، وبات يطلق عليه ؟الفقر المؤنث؟ أو تانيث الفقر في المنطقة العربية تحديدا.

إن هذه الأوضاع من التوتر وعدم الاستقرار وغياب الأمن في المنطقة العربية، تسببت في نشوء اقتصادات هشة لم تعد قادرة على توليد فرص للعمل والتشغيل واستقطاب الاستثمارات، فكانت النساء في مقدمة الضحايا الفاقدات لفرصهن في العمل والتنمية في مثل تلك الاقتصادات والأسواق.. فضلاً عن أن العوامل الثقافية والاجتماعية والسياسية والتراكمات التاريخية التي لعبت ومازالت دوراً في تحديد فرص الذكور والإناث في التعليم والمعرفة والتشغيل.. وفي التقسيم الجنسوي للعمل.

لقد بات "فقر المرأة" في منطقتنا حقيقة واضحة، لا يمكن إنكارها أو التغاضي عنها، وقد أقرت التقارير العربية بازدياد أعداد الفقراء كما أقرت بأن النساء يشكلن الغالبية العظمى من فقراء الوطن العربي، نتيجة تدني نسبة مساهمة المرأة العربية في التنمية الاقتصادية والتي مازالت دون الـ ٣٠٪ من القوى العاملة العربية (بحسب احصائية منظمة العمل العربي) اضافة لـ ارتفاع معدلات البطالة بين الاناث، خاصة خريجات التعليم الجامعي، والاثار السلبية للخصخصة على نسبة مشاركة المرأة في ميدان العمل، بسبب كلفة الحقوق الحمائية للمرأة، وتراجع دور القطاع العام، وعدم تطبيق تأمين الامومة والطفولة أحد فروع التامينات الاجتماعية، ومعاناة المرأة بسبب التشريع حينا والعادات والتقاليد الاجتماعية في أغلب الاحيان، والأضرار التي تلحق بالاقتصاد الوطني نتيجة التمييز وعدم المساواة في العمل لتعارض ذلك مع معايير العمل وأثره السلبي على المنافسة التجارية، وصورة المرأة في الاعلام.

ويمكننا القول إن المرأة العربية تعاني اليوم من حالة غير مسبوقة من الفقر والتمييز والاستغلال التي تفاقمت كثيراً في ظل جملة من الحروب والاحتلالات.

إن ظاهرة "تأنيث الفقر" ظاهرة حقيقية في المجتمع العربي اليوم، ولا علاج لها إلا بمواجهتها وبكل الوسائل، انطلاقاً من محاربة كافة أشكال التمييز في العمل بسبب النوع، وتأكيد حق المرأة في الأجر المتساوي عند تماثل العمل، والحق في الترقيات وتسلم المراكز القيادية وأهمية تطابق هذه الحقوق مع المعايير الدولية. مروراً بتاكيد حق الفتيات في التعليم بمختلف مراحله المدرسية والجامعية مع ضرورة ربط التعليم بواقع واحتياجات أسواق العمل، وحقهن في التدريب المهني اللائق والمناسب مع إمكانيات وقدرات المرأة وواقع ومتطلبات أسواق العمل. والتاكيد على عدم التمييز في الاستخدام بسبب أعباء الحقوق الحمائية لعمل المرأة وهذا يتطلب مد مظلة التأمينات الاجتماعية لتشمل كل الحرف والمهن في القطاعين العام والخاص والمشاريع الصغرى والأعمال الحرة والعاملين لحسابهم الخاص من ذوي الدخل المحدود. وشمول تأمين الأمومة والطفولة والتأمين الصحي وتأمين المنح العائلية بفروع التأمينات المطبقة فعلياً.حتى التوعية بحقوق المرأة والعمل على محو الأمية القانونية بحقوقها الدستورية والقانونية وكيفية ترجمة هذه الحقوق على ارض الواقع، والتعريف بالإجراءات والأساليب اللازمة لتحقيق التمكين الاقتصادي والاجتماعي والسياسي للمرأة العربية.

كما لا بد لوسائل الإعلام العربي كافة المقروءة والمسموعة والمرئية لعب دور مهم في محاربة آفة "فقر النساء" بإعادة رسم صورة المرأة العربية ومحاربة التقاليد والعادات التي تقلل من دورها أو تشكك في قدرتها على المشاركة في القيادة وصنع القرار على كافة المستويات، وأبراز تجاربها الناجحة ، وإعلاء قيمة العمل بشكل عام.

مجرد أرقام !!

عبد الغني سلامة

في العام الماضي قُتل أكثر من تسعة ملايين طفل في العالم.

في العراق وحدها مليون مطلقة و٤٫٥ مليون أرملة، وأضعاف هذا الرقم من الأطفال الأيتام.

في الأردن أكثر من مائة ألف آنسة ممن تجاوزن السن المتعارف عليه للزواج، أي أصبحن بالعرف الاجتماعي «عانسات»، بينما بلغ عددهن في السعودية مليون «عانس» بالتمام والكمال.

في فلسطين بلغت حصة النساء من المجموع الكلي للأمية أكثر من ٧٠٪.

وهذه الإحصاءات مجرد غيض من فيض، مما يزخر به المجتمع العربي من نماذج للتخلف والقهر الاجتماعي، الذي تمثل فيه النساء والأطفال الضحية الأولى، وقد ينظر البعض إليها على أنها مجرد أرقام، ولكن الحقيقة هي أنها تعكس طرائق التفكير في المجتمع العربي والنظرة الدونية تجاه النساء والأطفال وأسلوب التعامل معهما، بالإضافة إلى الكثير من العبر التي يمكن استخلاصها ولكن يصعب عرضها في مقالة.

فضائل المجتمع «المحافظ» التي يتغنّى بها البعض، حَرَمت ملايين الفتيات من حقهن في التعليم، وسلبتهن نعمة الحياة الحرة الكريمة، فبسبب الموروثات الثقافية السلبية مُنعت الفتيات من إكمال دراستهن، ومن العمل والانخراط في الحياة العامة، وبسبب الميراث أحياناً مُنعن من اختيار الشريك، أو فُرضت عليهن زيجات أشبه بصفقات البيع.

لا يستطيع أحد تخيل حجم المأساة إلا إذا عاش معاناة آنسة فاتها قطار الزواج، في ظل مجتمع يقيّم المرأة بمعيار الزواج قبل أي شيء آخر، وفي ظل ثقافة تجعل من المتعذر على أي إنسانة، حتى لو كانت مثقفة، أن تشعر بكيانها خارج نطاق الزوجية، معاناة ممزوجة بالاحباط واليأس والشعور بالمرارة والحرمان، ونيران أشواق لا تستطيع أن تطفئها كل بلاغات الخطابة، ولن نستطيع تصور مدى الظلم الذي تكابده من أُجبرت على الاقتران بمن هو بعمر أبيها، أو من تُجبر على تجرع كأس الهوان والذل يومياً مع زوج نذل تعجز عن عصيان أوامره.

ولن نستطيع تخيل الخوف والضعف والجوع والضياع، الذي يعانيه أطفال اضطروا للعمل، أو تشردوا في الشوارع، أو قصفت الحروب ذويهم وأبقتهم بلا مأوى، أو أجبرتهم ظروف الحياة القاسية أن يعيشوا بلا طفولة، بينما تذوي إنسانيتهم شيئاً فشيئاً.

هل فكر أي من أمراء الحرب على امتداد الوطن العربي فيما تفعله رصاصة طائشة؟ وما تخلفه قذيفة عشوائية من مآس وكوارث وويلات!؟ وهل ندرك حجم الفرق الذي ستحدثه من أتيحت لها فرصة الاختيار الحر؟ وهل ندرك حجم الخسائر من تشرد ملايين الأطفال الذين كان ينتظرهم مستقبل مختلف؟!.

قبل أن ننتقد المجتمعات الغربية –التي فيها الكثير من المساوئ والسلبيات– علينا أن ننظر إلى دواخلنا لنرى الخرائب، التي تأبى حتى الغربان أن تنعق فوقها.

إضاءات

فقر وحصار غزة ضربة قاصمة للاقتصاد الفلسطيني

غزة ـ علا الحلو

كشف تقرير اقتصادي ارتفاع عدد سكان الأراضي الفلسطينية المحتلة الذين يعيشون دون خط الفقر من ٥٢٪ عام ٢٠٠٥، إلى ٥٧٪ عام ٢٠٠٦، وارتفعت نسبة الذين يعيشون في حالة فقر مدقع من ٤٠٪ إلى ٤٤٪.

وأكد التقرير الصادر عن مجلس التجارة والتنمية «الأونكتاد» التابع للأمم المتحدة فى جنيف، أنه نتيجة لارتفاع معدل البطالة وتآكل القاعدة الإنتاجية وسياسة الإغلاق الإسرائيلية، زاد الفقر فى الأراضي الفلسطينية حدة وانتشاراً، واتسعت الفجوة بين الضفة الغربية وغزة المعزولة.

وأوضح التقرير الذي أوردته وكالة أنباء الإمارات وتناول حالة الإقتصاد الفلسطيني فى عام ٢٠٠٧، أنه منذ عام ٢٠٠٠ فقدت ٦٢٪ من الأسر الفلسطينية ما يزيد عن ٥٠٪ من دخلها، وهو ما جعلها تضطر إلى خفض نفقاتها واقتصارها على الاحتياجات الأساسية، واعتماد استراتيجيات تفضي إلى تآكل قدراتها، مثل بيع الممتلكات وتأخير سداد فواتير استخدام المنافع العامة، وايقاف الأطفال عن الدراسة، كما أن الأزمة التي طال أمدها قد تجلت فى تردي نوعية التعليم والخدمات الصحية.

وتوقع التقرير فى ظل الظروف الراهنة، أن يزداد الفقر حدة فى عام ٢٠٠٨، لأن النمو الاقتصادي المتواضع المتوقع، لن يكون كافياً لمجاراة النمو السكاني، أو التأثير على حالة البطالة خاصة فى غزة.

وأكد التقرير أن الاقتصاد الفلسطيني أصيب بحالة من الركود في ٢٠٠٧، بعد أن سجل تراجعاً بنسبة ٥٪ عام ٢٠٠٦، وأنه لولا الرفع التدريجي للقيود المفروضة على تقديم المعونة الخارجية فى النصف الثاني من عام ٢٠٠٧، لكان النمو قد سجل معدلاً سلبياً للسنة الثانية على التوالي.

وأوضح التقرير أن هذا الركود الذي أصاب الناتج المحلي الإجمالي، قد ترتب عليه استمرار انخفاض نصيب الفرد من الناتج المحلي الإجمالي، ليتراجع عام ٢٠٠٧ إلى ما نسبته ٦٠٪ من المستوى الذى بلغه في عام ١٩٩٩.

وأشار التقرير أن معدل البطالة ارتفع ٢٩٪ عام ٢٠٠٧، مقارنة بمعدل قدره ٢١٪ عام ١٩٩٩، في الوقت الذى يزيد معدل البطالة في قطاع غزة المعزول عن ذلك بكثير، ويرجح أن يواصل تدهوره بعد أن وصل فى عام ٢٠٠٧ الى نسبة قدرها ٣٥,٢٪، مقارنة بمعدل قدره ٢٤,٥٪ في الضفة الغربية.

فيما دعت دراسة دولية حديثة، المجتمع الدولي بالضغط على سلطات الاحتلال الإسرائيلية لوقف سياسة الحصار والإغلاق، التي تسببت في تدمير اقتصاد قطاع غزة، وإجبارها على التقيد بقواعد القانون الدولي الإنساني وقانون حقوق الإنسان الدولي، وتوفير برنامج إغاثي عاجل لإنقاذ المواطنين وإيقاف نمو البطالة والفقر.

واعتبرت الدراسة الصادرة عن «المركز الفلسطيني لحقوق الإنسان» بعنوان «تدمير اقتصاد قطاع غزة»، القرارات المتلاحقة لسلطات الاحتلال الإسرائيلي والقاضية بتشديد الحصار على قطاع غزة، بأنها تشكل ضربة قاضية لاقتصاد القطاع المتدهور أصلاً.

ونقلت وكالة الأنباء السعودية (واس) عن الدراسة، أن ممارسات الاحتلال الإسرائيلي أدت إلى شلل أصاب كافة القطاعات الاقتصادية المكونة لقطاع غزة وكبدتها خسائر فادحة، أدت إلى إغلاق شبه تام لغالبية المنشآت الاقتصادية الحيوية، أو تقليص طاقة العمل فيها إلى أدنى المستويات.

واستعرضت الدراسة حجم التدمير الشامل والمنظم الذي أفضت إليه سياسة العقاب الجماعي ضد السكان المدنيين في قطاع غزة، وخلفت مزيداً من الفقر والبطالة بين صفوف العاملين فيه، بسبب التوقف شبه التام لكافة مرافق القطاعات الاقتصادية، والناجم عن استمرار إغلاق المعابر ومنع التدفق الحر للواردات والصادرات من السلع والبضائع، بما في ذلك المواد الأولية ونصف المصنعة.

وبالتزامن مع إحكام وتشديد الحصار، قلصت سلطات الاحتلال واردات الوقود إلى سكان القطاع إلى كميات متدنية للغاية، لا تفي بأدنى احتياجات السكان، كما أدى منع دخول مواد البناء إلى انهيار قطاع الإنشاءات والبناء والتعمير، وكان نتيجة ذلك انخفض عدد شركات المقاولات العاملة في قطاع غزة من ١٢٠ شركة إلى ٥ شركات فقط، أدى ذلك إلى تسريح نحو ٤٢،٠٠٠ عامل يعملون في كافة فروع هذا القطاع.

وبلغ إجمالي خسائر قطاع الإنشاء والمقاولات والصناعات الإنشائية المرتبطة به خلال عام، نحو ٥٨ مليون دولار، وتوقف العمل في مشاريع بناء وتطوير بنى تحتية بقيمة ٢٤٠ مليون دولار.

وذكرت وكالة الأنباء الإماراتية (وام) أن سياسات الحصار والإغلاق الصهيونية، كانت متزامنة مع تقليص شديد لواردات الوقود، بنسبة ٦,٥٪ للبنزين و٢٣,١٪ السولار، و٣٧,٦٪ للغاز الطبيعي من احتياجات القطاع اليومية.

فيما بلغت خسائر قطاع الصناعات الخشبية والأثاث ١١٠ ملايين دولار، بسبب توقف الورش عن الإنتاج، لعدم توفر المواد الخام ومنع تصدير منتجاتها، حيث أدى ذلك حسب بيان المركز إلى إغلاق نحو ٦٠٠ ورشة ومصنع للأثاث، فيما تم تسريح نحو ٦٦٠٠ من العاملين فيها، خصوصاً بعد نفاد المواد الخام من القطاع ومنع استيراد بدائل. وأشار الخضري إلى أن كافة التقارير الصادرة عن مؤسسات وجمعيات عربية ودولية زارت وفودها الأراضي الفلسطينية، تؤكد خطورة الأوضاع في قطاع غزة، وتعرض مليون ونصف المليون إنسان إلى عقاب وإبادة جماعية.

الفقر يدفعهم للتفكير في الرحيل

الأوضاع الاقتصادية الصعبة في قطاع غزة تقتل أحلام الشباب

رشا فرحات

يسيرون في شوارع غزة، يقفون على الطرقات، كل منهم له حلم قديم، يحاول تحقيقه على هذه الأرض التي لم يتمن العيش على أرض سواها، كانت لهم أحلام كبيرة، فجاءت الظروف غير مواتية لتحقيقها. إغلاق، بطالة، انقسام سياسي، ثم فقر وحصار خانق، جعل هؤلاء الشباب يصلون إلى أعلى مرحلة من اليأس التي حطمت أحلامهم وطموحاتهم، فباتوا يفكرون في الهرب من واقع فرضته عليهم هذه الظروف، التي اختلط فيها الاحتلال بالحصار بالاقتتال الداخلي، فتركهم بين يائس وعاطل عن العمل، وفي النهاية التفكير في الهرب هو الحل الوحيد في نظرهم.

أحلام ضائعة

لم يكن أحمد ابن الخامسة والعشرين يفكر قبل ثلاث سنوات بالسفر للعمل في الخارج، حيث كان يردد دوماً إن وطنه وأهله أولى بما درسه في كلية الهندسة في الجامعة، ولم تكن فكرة السفر قد خطرت بباله حتى هذه اللحظة، بعد أن توقفت أحوال المهندسين في القطاع، ولم تعد هناك فرصة في الحصول على عمل مناسب، في هذا يقول: «لقد تخرجت من كلية الهندسة بمعدل مرتفع، ولكن توقف أعمال الإعمار والعقار في القطاع، بسبب عدم توفر المواد الخام، جعلني أفكر الآن في البحث عن عمل في احدى الدول الخليجية، فالعمر يسير أمامي سريعاً، وأحلامي بدأت تتلاشى، وأنا ما زلت انتظر فرصة تخرجني من المأزق الذي أعيش فيه، فمن حقي أن اعمل وأتزوج وأنجب أولاداً كغيري من شباب العالم، ولا أعتقد أنني أطلب المستحيل.

الخلافات السياسية

وفي القضية نفسها، يقول محمود عبد الإله، وهو شاب يعمل في إحدى مؤسسات المجتمع المدني: «أنا أعمل براتب لا يتجاوز مائتي دولار، ولدي زوجة وطفلين، والحياة أصبحت في القطاع لا تطاق، فراتبي لا يكفي مصروفاً لطفل رضيع، والأسعار تزداد ارتفاعاً، وبالرغم من عدم تشجيع أهلي لي للسفر إلى الخارج، إلا أنني أرى أنها الوسيلة الوحيدة التي تحيي الأمل في داخلي، فكل شيء أصبح في المدينة فقيراً أو مسيساً، فإما أن تنتمي لحزب ما من أجل تحقيق أحلامك، وإما أن تقبع في فقر مدقع إلى ما لا نهاية، أو ترحل عن بلدك، وأنا أرى أن الخلافات السياسية التي نتج عنها في النهاية فقر وجوع، جعلت أحلام الشباب تتحطم، وباتوا يفضلون السفر إلى أي مكان في العالم، لكي يحصلوا فقط على فرصة ضئيلة في العيش بأمان واستقرار، هي أقل ما يريدونه من حقوق، وأنا أتمنى من الله أن يهدي هذه الأحزاب المتناحرة، وأن يأخذوا أحلامنا بعين الاعتبار، حتى لا نصل إلى مرحلة من الانفجار النفسي التي أوشكنا فعلاً على الوصول إليها».

آثار سلبية وأرقام

تفيد معظم الدراسات النفسية، أن للحصار تأثيره السلبي على الصحة النفسية والجسدية، وأن نسبة كبيرة من العاطلين عن العمل، يشعرون باضطراب نفسي ينقلونه إلى أسرهم، وهذا يعود إلى عدم تقدير الذات لديهم بسبب البطالة المستشرية، التي ستنتج عنها حالة من الفقر والعوز والشعور بالفشل، كما وجد أن نسبة منهم تسيطر عليها الملل، وأن يقظتهم العقلية والجسمية منخفضة، كما أن البطالة تعيق عملية النمو النفسي بالنسبة للشباب، الذين ما زالوا في مرحلة النمو النفسي.

والسبب الأساسي في هذه المشاكل بين العاطلين عن العمل، هو الافتقار إلى المال، كما أن تعطيل الطاقة الجسدية بسبب الفراغ، لا سيما بين الشباب الممتلىء طاقة وحيوية، ولا يجد المجال لتصريف تلك الطاقة، يؤدِّي إلى أن ترتدَّ عليه تلك الطاقة لتهدمه نفسياً، مسببة له مشاكل كثيرة. وفي تقرير آخر أعده معهد دراسات التنمية في غزة، والذي يفيد بأن إحصائيات القوى العاملة تشير إلى أن معدل الفقر في ٢٠٠٨، وصل في قطاع غزة إلى ٨٠٪، وأن ما نسبته ٦٦،٧٪ يعيشون في فقر مدقع نتيجة الآثار الناتجة عن الإغلاق وزيادة معدل البطالة، وذلك في ظل استمرار ارتفاع مؤشر غلاء المعيشة، نتيجة شح الواردات وضعف الرقابة على الأسعار، وانخفاض حجم الإنتاج المحلي، واستمرار زيادة معدلات الإعالة الاقتصادية والفقر، واعتماد الأسر الفلسطينية على المساعدات الإنسانية، خاصة الغذائية منها، لتجنّب ازدياد نسب سوء التغذية. بيّنت نتائج التقرير أن ٦٢٪ من الأسر في قطاع غزة أجرت تعديلات في أنماطها الاستهلاكية، كي تتماشى مع ظروف الحصار الراهن، حيث أصبح ثلاثة أرباع سكان القطاع يواجهون صعوبة في توفير السلع الأساسية، الأمر الذي يعكس محدودية القدرة على الاستمرار في التكيف مع الظروف الراهنة. وأشار التقرير إلى أن نسبة الإغلاق منذ ٢٠٠٧ سجلت أعلى مستوياتها منذ إقامة السلطة الوطنية، ما ترتب عليه زيادة التدهور في المستويات المعيشية، بسبب استمرار إجراءات الحصار والإغلاق، علاوة على ترسيخ مظاهر الانقسام الداخلي الذي نتج عنه انفصال سياسي واجتماعي واقتصادي لقطاع غزة عن الضفة الغربية من ناحية، وفصل قطاع غزة عن العالم الخارجي من ناحية أخرى.

كما وأفادت معطيات وزارة الخارجية الفلسطينية، بأنه قد تم التقدم بـ ٤٥ ألف طلب للهجرة منذ أواسط ٢٠٠٦ للممثليات الدبلوماسية الأجنبية في الأراضي الفلسطينية، وذكرت إحصاءات جهاز الإحصاء المركزي الفلسطيني أن بيانات المسح للأعوام ٢٠٠٣ و٢٠٠٤، قد أشارت إلى أن ٢٠٪ من الشباب يرغبون بالهجرة، وأن هذه النسبة وزعت بنسبة ٢٢٪ في الضفة الغربية و١٦٪ في قطاع غزة، وأن الشباب في الفئة العمرية بين ٢٠ إلى ٢٤ سنة، هم أعلى نسبة إذ مثلوا ٢٧٪ ممن يرغبون في الهجرة. لكن دراسات وأرقاماً أخرى تعود إلى شهر أيلول ٢٠٠٦، أوضحت أن نسبة من يفكرون بالهجرة قد ارتفعت إلى ٤٤٪.

لتشتري عربة وحمار

باعت قرط صغيرتها وخاتم زواجها

غزة – ماجدة أحمد

روايات الحصار والفقر كثيرة، لا يكاد بيت يخلو منها، فالأزمة عمت وطالت الجميع على حد سواء، وإن كانت أثرت بشكل أكبر على الطبقة المسحوقة والفقيرة، لا يتسع المقام هنا للحديث عن قصة أو حكاية بعينها، ولكن استحضرتني قصة جارتنا سيئة الحظ وزوجها العاطل عن العمل لسنوات طوال، ولم يسعفه الحظ في الحصول على فرصة عمل، علماً أنه صاحب مهنة كانت جيدة قبل الحصار.

جارتي لم تترك شيئاً في منزلها وإلا وقامت ببيعه، لكي تستر بيتها وتوفر لقمة العيش لأولادها الصغار الثلاثة، باعت مصاغها في البداية، ومن ثم بعض المستلزمات البيتية، مروراً بجهاز الجوال الخاص بزوجها، حتى قرط إبنتها الصغيرة قامت ببيعه، حينما اشتدت عليها أزمة المعيشة، بالإضافة إلى خاتم الزواج، آخر ما تبقى، وقامت بالإستدانة من جيرانها لكي تشترى لزوجها عربة وحماراً، يبيع عليها الخضار والفاكهة، بعدما راجت هذه المهنة في أحياء غزة الفقيرة، وساهمت في سد رمق الكثير من العائلات.

انفرجت أسارير جارتي بعدما استطاعت تدبير مبلغ ٥٠٠ دينار بشق الأنفس،تكفي لشراء الحمار، وانتظرت بفارغ الصبر حلول يوم سوق الجمعة، وهو اليوم المخصص لبيع الحيوانات في مدينة غزة، أيقظت زوجها باكراً ليذهب بصحبة أبيها الذي يمتلك الخبرة في عملية الشراء. وبالفعل ذهبا للسوق، وفي وسط الزحام بعد أن قام بالإتفاق مع البائع ووجد مبتغاة، وضع يده على جيبه لكي يدفع الفلوس فلم يجدها، يبدو أن جارنا قد تعرض لعملية سطو وسط الزحام، وراحت عليه البيعة، وعاد أدراجه بخفي حنين.

منذ ذلك الحين وجارتنا لا تكف عن ندب حظها وحظ زوجها، بعد هذه الحادثة التي لم تكن قد وضعتها في الحسبان، وما زالت تدبر نفسها من هنا وهناك، وتميل على الأهل تارة، وعلى بعض المؤسسات تارة أخرى، وما زال يحدوها الأمل في أن يجد زوجها فرصة عمل، تكفيهم ذل الحاجة والسؤال، وتمكنهم من العيش بكرامة، أسوة بميسوري الحال.

إبداع المرأة وجدار الفقر

عبد الفتاح شحادة

كثيرة هي العوامل التي تحيط بالمبدعين، والتي يمكنها أن تبرز ابداعهم أو تطمره في غياهب الظلمات البعيدة، وتحيطهم بالأسوار العالية التي تراكم اليأس فوق قلوبهم.

حيث تجتمع العوامل الاجتماعية والسياسية والثقافية والنفسية، لتؤثر في مجملها على المبدع في كلا الاتجاهين.

في هذا المقال نتناول الفقر كظاهرة عالمية، وتأثيرها على الإبداع الفردي والجماعي النسوي، والفنون المرتبطة بهذه الظاهرة. وذلك في إضاءة بسيطة. بالنظر إلى العالم الإبداعي وأبطاله العظام، نجد أن معظمهم جاءوا من الطبقة المتوسطة في المجتمعات، وليست من تلك البرجوازية ولا الفقيرة إلى حد العوز. ولا يتسع المجال لذكر أسمائهم هنا، وهذا نجده أيضاً في المجتمعات العربية والمجتمع الفلسطيني.

بالنظر إلى إبداع المرأة خلف أسوار الفقر متمعنين، سندرك حجم المعيقات التي تحول بين هذا الإبداع وظهوره إلى النور، فالتجمعات الفقيرة هي بيئة جيدة لنمو المشاكل الاجتماعية، وفيها يمكننا أن نرى تأثير الثقافة الشعبية والأصولية، والمجتمعات الذكورية في أبشع صورها، وذلك لأن هذه التجمعات الفقيرة هي ضحية بدورها للأنظمة المالية المسعورة في العالم.

بالنظر إلى ذلك، سوف نتحسس مدى صعوبة إبراز إبداع المرأة في هذه التجمعات الفقيرة، والتي تشكل العدد الأكبر في مجتمعنا الفلسطيني الآن، وتتنامى في العالم بشكل مخيف، فالمرأة هنا عليها أن تواجه مشاكل كبيرة، الفقر هو المسبب الأساسي فيها.

ليس ذلك فقط، فالفقر بحد ذاته آلة مسعورة ووحش لدود للإبداع، فهو يجعل الإنسان أسيراً للقمة عيشه، فالمبدع الفقير في المجتمعات العربية تحديداً، يمتلك خيارين؛ الأول يكون على حساب مشروعه الإبداعي، والثاني على حساب تدبير أمور حياته اليومية، وهذا ينطبق على المرأة والرجل، ولكن المرأة تأخذ نصيب الأسد منه، فهي حسب المجتمعات الفقيرة مطلوب منها أشياء محددة وأدوار نمطية، من الصعب إن لم يكن من المستحيل تجنبها.

ما زلت أذكر مثابرة أمي على قراءة دوستويفسكي الجريمة والعقاب بنسخته الإنكليزية، في آخر ساعات الليل، حيث تكون قد فرغت من أعباء المنزل، وما زلت أذكر خطها على الأوراق الذي يكتب أبيات الشعر، أين ذهبت هذه الموهبة الآن. لقد أخذها الفقر معه ومضى، ولم يبق منها غير شغفها بقراءتها التي أستغرب من اتساعها.

لو عدنا إلى الخيارين أمام المرأة المبدعة في المجتمعات العربية، سوف نجد الخيار الأول وهو التفرغ للمشروع الإبداعي هو خيار يوتوبيٌ لأن فيه تحدياً صارخا لقيم وهموم هذا المجتمع. أما الخيار الثاني فهو الانشغال بالحياة والهروب من أقدارهن كمبدعات.

يتضح حتى الآن أن الطريق شبه مسدودة أمام جدار الفقر، ولكن بالنظر إلى دور المجتمع بطبقاته الاجتماعية ومؤسساته الحكومية وغير الحكومية، ندرك أن الحلول تكمن في وضع المشاريع الاستراتيجية من قبل المؤسسات والحكومة، لإبراز إبداع المرأة وإخراجه من ظلمات الفقر. فالفرد سواء كان رجلاً أو امرأة، هو غير قادر وحده على إبراز وإيجاد مساحته الإبداعية في خضم ظروف الفقر القاسية.

لقد حاول العديد من الفنانين الذين عانوا من الفقر، أن يجدو مساحةً لممارسة فنهم لا تكلفهم المال، فكان المسرح الفقير، والفن التشكيلي الذي يستخدم مواد البيئة المستهلكة، والمعارض التي تقام في الشوارع.

كما كان الكتاب العراقيون في الحصار يستخدمون الورق المستهلك للكتابة عليه، ولكن سنجد أن المرأة ستجد في ذلك مشاكل مضاعفة بالنسبة لما يواجه الرجل، وتبقى الأسئلة مفتوحة، من وكيف ومتى سوف تنظر المؤسسات والحكومات العربية إلى المرأة المبدعة في مجتمعاتها الفقيرة، لتبرز إنتاجها الإبداعي وتحول دون تكسره على جدار الفقر!.

معدل الفقر وصل إلى ٨٠٪

الفقراء من شريحة العمال... أعداد تتزايد بسبب الحصار

غزة- فايز أبوعون

«يحمل عدداً من الأغلفة البلاستيكية الفارغة لبطاقات الهوية، والأشرطة اللاصقة للجروح، وبعض الولاعات، والعلكة المصرية، ويتقدم بها نحو كل سيارة تقف عند الإشارة الضوئية، مادا يديه داخلها وكأنه يستجدي سائقها وركابها من الذكور والإناث لشراء أي شيء منها».

وما إن يفرُغ الحاج «أبو محمد» الذي قارب عمره على الـ(٧٠ عاماً) من عرض بضاعته على ركاب هذه السيارات القادمة من الشرق إلى الغرب، حين تُضيء الإشارة لونها الأخضر، حتى يُسارع الخطى لعرضها مرة أخرى على ركاب تلك السيارات المتوقفة في الاتجاه المعاكس على الإشارة المضيئة لونها الأحمر، غير آبهٍ بمن يضغط على الفرامل بقوة، تفادياً لدهسه، أو بمن يُطلق العنان لبوق سيارته محذراً إياه، أو بمن يُشيح بوجهه عنه، أو حتى بمن يُطرق على مسامعه بعض العبارات التي لا تليق أن تُقال لعجوز، أبى إلا أن يكسب قوت يومه بعرق جبينه.

الحاج أبو محمد الذي ما إن يبزغ فجر يوم جديد، حتى يسارع لأخذ مكانه على مفترق السرايا، تقاطع شارع عمر المختار مع الجلاء وسط مدينة غزة، وهو الشارع الرئيسي والحيوي في محافظة غزة، وحوله العديد من الأطفال الذين لم تتوقف ألسنتهم عن ترديد عبارات ما أنزل الله بها من سلطان مثل: «رزّقني الله يخليك... أنا يتيم أمانه رزّقني... والله أبوي بطردني من البيت إذا ما جبتش إله مصاري». كلمات وحركات اعتاد على سماعها ومشاهدتها جميع سكان قطاع غزة، تنم عن حالة الفقر المزرية التي وصل إليها أكثر من ٨٠٪ من سكانه.

غد مجهول

ورغم أن هذه الكلمات وغيرها تتفوه بها ألسنة بريئة، وتخرج من أفواه أطفال نسجت حياة الفقر خيوطها حولهم، وألقت بظلالها على وجوههم، إلا أن منظرهم الذي تنفطر له القلوب، لا يُبشر بأن غدهم سيكون مشرقاً طالما الحصار بقي على حاله، والبطالة ضربت أطنابها في شبانه قبل شيبه، والفقر المدقع أصبح أنيساً وجليساً لأكثر من٦٦ر٧٪ من سكان القطاع، حسب التقرير الصادر عن معهد دراسات التنمية في غزة.

المتسولون الأطفال، والمتسولات من النساء والباعة الكبار، مشاهد فقرٍ مدقع تتكرر يومياً على جميع مفترقات الطرق، ووسط الشوارع العامة والفرعية، وتزخر بهم الأسواق في كافة محافظات القطاع الخمسة وهي «رفح، خان يونس، دير البلح، غزة والشمال»، فمنهم من يقتنع بعبارة «الله يرزقك» ليتركك في الحال ويذهب لغيرك، ومنهم من يبقى يلح ويدعو ويمسك في ملابسك إلى أن تُعطيه، أو تنهره بقوة.

وفي هذا السياق يقول المواطن محمود رويشد من مخيم جباليا للاجئين، المتعطل عن العمل منذ بداية انتفاضة الأقصى لـ«صوت النساء»: «بعد إغلاق سوق العمل في إسرائيل وأحوالنا بدأت تتدهور يومياً، لأن سوق العمل في قطاع غزة والذي توقف تماماً منذ أكثر من عامين بسبب الحصار الجائر المفروض عليه، لا يستطيع أن يتحمل هذه الأعداد الهائلة من العمال، الذين كانت تستوعبهم إسرائيل في مصانعها ومزارعها».

عمل لأيام محدودة

وأضاف رويشد الذي يُعيل أسرة مكونة من ٩ أفراد: «أنا شخصياً لا أتذكر أني عملت خلال السنوات الستة الماضية سوى لأيام معدودة، إما في العتالة، أو الحفر، رغم أن مثل هذه الأعمال لم أمارسها من قبل، بل كنت أرفض العمل فيها أيضاً، لأنني أتقن صنعة البلاط، مشيراً إلى أن استمرار الأوضاع على هذا المنوال، سيدفع بالمجتمع الفلسطيني كله إلى الكارثة».

وتابع: «عندما أرى آلاف الأطفال والطلبة ذاهبون إلى مدارسهم كل صباح، أتساءل عن أي مستقبل ينتظرهم إذا كان آباؤهم لم يؤسسوا أي مستقبل لهم، فالبحر والجو والبر في غزة محاصر، وحال معظم سكان المخيم من الشباب كحالي أنا، سرعان ما نلتقي في ظل محل تجاري مُغلق أبوابه، أو بجانب جدار منزل هجره سكانه لنشكو لبعضنا البعض بعضاً من همومنا».

وطالب رويشد وكالة الغوث الدولية «أونروا»، بإعادة توزيع المساعدات على جميع سكان قطاع غزة دون استثناء، كما كان الأمر في بداية الستينات، لأن الشعب الفلسطيني أصبح جميعه بحاجة إلى مساعدة، وأضحى اليوم أفقر مما كان عليه قبل خمسين عاماً، لأن سكانه لا يعرفون إلى أين يذهبون ولا يستطيعون الخروج أو الهروب من أبواب هذا السجن الكبير المسمى غزة، حيث لا عمل ولا مياه ولا كهرباء ولا أمل حتى في غد أفضل.

إلى ذلك أكد معهد دراسات التنمية في غزة، في تقرير حديث صدر عنه مؤخراً، أن إحصائيات القوى العاملة لسنة ٢٠٠٧، تشير إلى أن معدل الفقر في كانون الثاني ٢٠٠٨، وصل في قطاع غزة إلى ٨٠٪، وأن ما نسبته٧ر٦٦٪ يعيشون في فقر مدقع، نتيجة الآثار الناتجة عن الإغلاق وزيادة معدل البطالة، وذلك في ظل استمرار ارتفاع مؤشر غلاء المعيشة، نتيجة شح الواردات وضعف الرقابة على الأسعار، وانخفاض حجم الإنتاج المحلي، واستمرار زيادة معدلات الإعالة الاقتصادية والفقر، واعتماد الأسر الفلسطينية على المساعدات الإنسانية، خاصة الغذائية منها لتجنّب ازدياد نسب سوء التغذية.

وبيّنت نتائج التقرير أن ٦٢٪ من الأسر في قطاع غزة، أجرت تعديلات في أنماطها الاستهلاكية، كي تتماشى مع ظروف الحصار الراهن، حيث أصبح ثلاثة أرباع سكان القطاع يواجهون صعوبة في توفير السلع الأساسية، الأمر الذي يعكس محدودية القدرة على الاستمرار في التكيف مع الظروف الراهنة.

وأشار التقرير إلى أن نسبة الإغلاق منذ حزيران ٢٠٠٧، سجلت أعلى مستوياتها منذ إقامة السلطة الوطنية، ما ترتب عليه زيادة التدهور في المستويات المعيشية، بسبب استمرار إجراءات الحصار والإغلاق، علاوة على ترسيخ مظاهر الانقسام الداخلي، الذي نتج عنه انفصال سياسي واجتماعي واقتصادي لقطاع غزة عن الضفة الغربية من ناحية، وفصل قطاع غزة عن العالم الخارجي من ناحية أخرى.

وبيّن التقرير أنه ونتيجة الحصار والإغلاق، فقد استمر إغلاق معبر رفح الحدودي، خلال الربع الرابع من عام ٢٠٠٧ بشكل كامل، باستثناء السماح بمرور ٢٢٠٠ حاج لتأدية فريضة الحج، والنصف الأول من عام ٢٠٠٨، في حين لا يزال معبر بيت حانون «ايرز» مغلقاً تماماً أمام العمال.

ونوّه التقرير إلى استمرار تدهور أوضاع القطاع الخاص وإغلاق المنشآت الاقتصادية، نتيجة عدم توفر المواد الخام اللازمة لتشغيلها، ومنع التصدير وخاصة الأنشطة الإنتاجية، مبيناً أن جميع مؤسسات قطاع الإنشاءات اضطرت للتوقف عن العمل.

وأوضح التقرير أن ٩٠٪ من المنشآت العاملة في قطاع الصناعة توقّفت عن العمل بشكل كامل، أما بالنسبة لبقية المنشآت، فقد استمرت بممارسة أنشطتها بأقل من٤٠٪ من طاقتها التشغيلية، حيث كانت أكثر الأنشطة تضرراً المنشأة العامة في مجال الصناعة الغذائية والأثاث والملابس، لافتاً إلى أن تضرر الأنشطة الاقتصادية نتيجة الحصار، أدى إلى ارتفاع نسبة البطالة في قطاع غزة، إضافة لتدني مستويات المعيشة، وارتفاع نسبة الفقر رغم وجود المعونات الإنسانية والتنموية المقدمة لقطاع غزة، حيث ما زال هناك أكثر من ٨٠٪ من الأسر تحت خط الفقر، كما تعيش حوالي ٧ر٦٦٪ من الأسر في فقر مدقع.

هل نحن فقراء...؟؟

خلود جمعة

الموضوع هذه المرة مختلف إلى حد ما، فأنا لن أروي قصة نخبة من فقراء المخيمات أو غير المخيمات، قصة فايز ومسعود، أحمد وناصر، سمية وأم دلال! فلقد سبقني الكثير في رواية أخبارهم ورصد حياتهم، نسمع كثيراً عن الفقراء وأحوالهم المعيشية، نعيش معهم اللحظة، نتعاطف مع أحوالهم ونشاركهم آلامهم، وما هي إلا لحظات حتى تغيب هذه الأحاسيس بانتهاء الحدث، ربما نساهم بمشاركتهم معنوياً، أو على الأقل مادياً، ففي النهاية لم نغير شيئاً، فهم فقراء، وربما سيلازمهم فقرهم إلى الأبد، أو حتى إلى الممات، وربما سيبتسم لهم القدر وتنعم عليهم السماء. قصص كثيرة عن الفقر والفقراء، تلك معاناة وثانية مأساة وثالثة فقر على كل الأحوال ورابعة وخامسة. مقالات عديدة نشرت عنهم، مؤسسات داعمة أنشأت لأجلهم، ظروف تحسنت وأخرى تدهورت، أحلام تحققت وأخرى طمست واندثرت. هل حقاً يملك المال حق تغيير مجرى حياتنا؟! اختلفنا كثيراً حول هذا الأمر، من الممكن أن يحدث هذا ومن الممكن ألا يحدث، صراحة لقد سئمت تلك المجادلات والأطروحات، في القدم كنا سعداء والآن تعساء، الحضارة تتقدم، المعيشة تتعسر، الأمور تتسهل والحياة تتأزم. مخطىء بل مخطىء من يظن أن الفقر هو فقر الجيوب، فالجيوب الخاوية قد تمتلىء بالمال ذات يوم، وكما ذكرت سابقاً أنا لست بمحض الإسهاب في قصص الفقر والفقراء، فالفقر جرت العادة على اعتباره مادة ونقصاً في المال والامكانيات. ربما تختلف الفكرة عندي قليلاً، فكما أسلفت سابقاً ربما ستمتلىء هذه الجيوب الخاوية، وبهذا فهي لم تعد فقيرة، ولكن هل حقا امتلاء الجيوب يسلبها صفة الفقر والبؤس؟ أحترم كثيراً المعماري المصري حسن فتحي، الذي أعطى توجهاً آخر في الحياة من خلال نظريته حول عمارة الفقراء، في كتابه الشهير عمارة الفقراء لأغنياء العقول. فلقد قام هذا المعمارى بتصميم وإنشاء قرى سكنية ضخمة، تناسب الأحوال المعيشية للفقراء، ولكنه تعامل بطريقة مختلفة عما تبادر إلى الأذهان من أفكار، وكانت فكرته سبباً دعا معظم من نهج نهجه إلى اتباع أسلوبه في عمارة الفقراء، التى سخرت فيما بعد لخدمة عمارة الأغنياء، ومن هنا أوجد خطاً مشتركاً بين الفقراء والأغنياء، فكلاهما مكمل للآخر، ربما ستعجبون من أمري حين أصرح لكم بأن الفقر هو فقر قلبي وقلوبكم، ففقر الجيوب نعالجه بملئها بالمال وأرصدة البنوك، ولكن هل لفقر القلوب من علاج؟ فقيرة تلك القلوب التي لا تنبض شراييننا وأوردتها بالعواطف الإنسانية والعطاء، فقلوبنا اعتادت الفقر واتخذته منهج حياة تحيا به وعليه ومعه، وتقوى وتكابر على حسه، وتستمد منه قوتها وجبروتها في مواجهة غياب العواطف الانسانية والمشاعر الآدمية الصادقة، الفقير هو ذلك القلب المجرد، ذلك القلب الذي يجافي ولا يسامح، تلك القلوب الخالية من الألفة والطمأنينة، تلك الأشبه بالشجيرات التي تساقطت أوراقها وذبلت ورودها، فأصبحت خاوية على عروشها، هذا هو الفقر بعينه، فقر النفوس، فقر القلوب وجفاف ينابيعها، ذلك الفقر الذي عجزت أرصدة البنوك عن سداد حاجته ومتطلباته، هل سمعتم من قبل عن قلوب ماتت من الجوع؟ لا أعتقد، ولكن ربما سمعتم من قبل عن قلوب ماتت من جفاف ينابيع إنسانيتها وتفانيها! ترى عزيزى القارئ هل حقاً نحن فقراء؟.

منازل المخيمات

فقر مدقع... عشرات تحت سقف واحد وخصوصيات الأسر مكشوفة

غزة ـ حنان أبو دغيم

تتخفى في تجاعيد مخيمات تعتلي قسمات أرضها ملامح لجوء لا منتهية، وتبتلع أزقتها عشرات القصص الإنسانية، فعمرها من عمر اللجوء تقريباً، حيث تأسس جل مخيمات قطاع غزة مع وصول أولى موجات المهجرين نهاية أربعينيات القرن الماضي.

ويكفيك أن تزور مخيماً واحداً لتتخيل صورة باقي المخيمات، فهي مولودة من رحم واحد اسمه الفقر والمعاناة.

داخل زقاق

في شمال قطاع غزة حيث أكبر المخيمات «مخيم جباليا»، تنقلنا بين البيوت نبحث عن قصة تتجسد فيها آلام اللاجئين، حتى وجدنا عبد الفتاح «٣٦عاما»، أو كما ينادي «أبو عماد»، يجلس أمام شيء أشبه بالمنزل في أحد أزقة المخيم، بادر حديثه معنا بالقول: «والله خجلان أقولكم تتفضلوا.. البيت حاله على الله».

لكن كلماته كانت أجمل من حقيقة المنزل، الذي لا يتجاوز الستين متراً، وفي جولة لم تستغرق منا إلا دقائق، وصف لنا أبو عماد معيشتهم داخل هذه الأمتار المعدودة فقال: «في هذه الغرفة التي لا تتجاوز المترين تنام أمي العجوز وأختي المطلقة مع أولادها الأربعة، وفي الغرفة الثانية وهي أكبر قليلاً أنام أنا وزوجتي وأطفالي السبعة».

ويضيف: «في النهار تتحول هذه الغرفة إلى صالون نستقبل فيه الضيوف ويدرس فيها الأولاد، وفي الليل تصبح كعلبة (الفسيخ) ننام فوق بعضنا البعض».

«لا السكن آمن ولا الغذاء وافر، ومزيد من الأمراض قد تستوطن ثنايا منزل يفتقد لأبسط المواصفات الإنسانية»، فقد تكون هذه خلاصة ما رأيناه بعد جولة لم تستغرق منا إلا دقائق معدودة في منزل أبو عماد، الذي بخلاف غرفه الاثنتين «إن صح لنا تسميتها بالغرف»، يحتوي على حمام بالكاد تستطيع أن تقف فيه، ومطبخ رغم قلة أوانيه وأدواته إلا أنها أيضا تناجي من يتذكرها بشيء يوضع فيها لأجل أطفال العائلة.

لا خصوصية

من الجهة الشمالية يحد منزل أبو عماد منزل أخيه الأكبر جودت، ومن الجهة الجنوبية دكان صغير، ومن الخلف منزل جاره أبو فيصل، وأما باب المنزل فلا يفصله سوى متر واحد عن باب المنزل المقابل له، حتى كدنا نشعر أن هذه المنازل كلها ما هي إلا غرف في منزل واحد، حيث لايفصلها عن بعضها سوى حائط هش، تتسرب منه رائحة الطبيخ وأصوات الأطفال وبكاؤهم وقهقهات الكبار متى ضحكوا، وحتى أسرار الأزواج إن تناجوا ليلاً بعيداً عن مسمع ومرأى أطفالهم، الذين ينامون معهم في غرفة واحدة.

تقول أم عماد «٣٢ عاماً»، وقد كسا بشرتها الداكنة خجل امتزج بحسرة على العمر الذي يمضي: «أكبر أولادي في الصف الرابع الابتدائي، وأصغرهم طفل لم يتجاوز العام، ننام جميعاً في هذه الغرفة، الأولاد فراشهم على جهة وفراشي أنا وأبو عماد على جهة ثانية».

وتضيف: «نحاول أن يكون لنا خصوصية في علاقتنا الزوجية، لكني أشعر بخجل شديد عندما يستفيق أحد أولادي في الليل، وأتمنى لو أن الأرض تبتلعني وقتها، فلم يعد أولادي صغارا، وأنا أخاف على سلوكهم فيما لو شاهد أحدهم أو سمع شيئا مما يدور بيني وبين أبيهم».

ومن جهة أخرى تتحدث أم عماد عن الحياة داخل المنزل والعلاقة مع الجيران فتقول: «لا شيء خاص لنا في المنزل، تقريباً أسرارنا عند الجيران كما أسرار الجيران عندنا، فأنا أسمع كل ما يدور في منازلهم من بكاء وضحك وأحاديث، وأعرف أين يذهبون ومن يزورهم وكل شيء، وبالتأكيد هم مثلنا يعرفون عنا كل شيء».

تشير إلى جدران المنزل وتقول: «ماذا ستخبىء هذه الحيطان وهي رقيقة مفتوحة وكلها ثغرات، تتنقل الحشرات بين منزلنا ومنزل الجيران فما بالكم بالأسرار».

اللاجئون الأكثر فقراً

تتعاقب الأجيال في المخيمات تباعاً، لكن التاريخ يظل يراوح مكانه، فالمرور في شوارع المخيم وأزقته أو مطالعة وجوه أطفاله أو مجالسة شيوخه ونسائه، أمور تكفي لقراءة معالم الفقر المدقع التي تتمسمر في جنبات المخيم منذ زمن، وتمزق إنسانية اللاجئين فيه يوماً بعد آخر، وازدادت وبشكل ملحوظ مع تشديد الحصار الذي فاقم من ظاهرة البطالة ورفع نسبة الفقر إلى ما يزيد على ٨٣٪ في قطاع غزة..

فكما آلاف أسر اللاجئين تعتمد عائلة أبو عماد على المعونات المقدمة من وكالة غوث وتشغيل اللاجئين «الأنروا»، فتاريخ اللجوء الفلسطيني هو أيضا تاريخ الأونروا، التي يعتمد اللاجئون على خدماتها في المخيمات التي تعاني من مشاكل متفاقمة، أهمها الازدحام القاتل وتفشي البطالة وضعف المرافق الصحية، فسكانها باختصار دخلوا كهوف مأساة تمتد مع امتداد عمر لجوئهم.

وتصف والدة أبو عماد الحاجة منيرة «٦٢ عاماً» خدمات الأنروا منذ أن حلت العائلة لاجئة على المخيم العام ٤٨ فتقول: «تحسنت خدمات الوكالة قليلاً عن السابق، أصبح هناك كوبونات من وقت لآخر ومساعدات مالية رمزية، لكنها في النهاية ماذا ستكفي؟».

تتساءل وتضيف: «نحن نعيش في هذا المنزل حوالي خمسة عشر فرداً، وابني عبد الفتاح عاطل عن العمل منذ سنوات، نعيش على الفتات الذي تقدمه الوكالة وهذا لا يكفي».

وتشير بإصبعها لجدران المنزل المتهالك وتقول: «والله حرام بيت لا يحمينا من شمس صيف ولا برد ومطر شتاء، ولا يحمي الأطفال من الحشرات، لمتى يارب هالحال؟».

أحلام وراء أحلام

أحلام الكبار صغيرة، وأحلام الصغار بريئة، وكلها في النهاية خلاصة طموحات اللاجئين، لخصها لنا عماد «١١عاماً» فقال: «نفسي يكون عندي غرفة لحالي فيها ألعاب، ونذاكر أنا وصحابي ونلعب فيها، ونفسي اشتري لبس حلو وأروح على الملاهي زي الناس».

يسرح عماد وهو يحاول لملمة أحلامه القليلة ويضيف: «كمان نفسي يصير عنا بيت حلو وننام مرتاحين، أنا ما بحب الشتاء لأن أمي دايماً بتيجي بالليل تصحينا بعد ما تكون المطرة بهدلت فراشنا».

أما والدته فأضافت لأحلامه قليلاً: «نفسنا نعيش عيشة مرتاحة ياربي، والله ما إحنا طمعانين في قصور، كل اللي بدنا إياه بيت ننام فيه بهدوء ونربي هالأولاد، وقرش حلال آخر كل شهر يعيشنا مستورين، وما نقعد نحلم بالكوبونة ونعيش على أعصابنا لما تتأخر».

أزمة الرهن العقاري

أحمد عرار

«الأزمة المالية تهدد معيشة مليارات الأشخاص عبر العالم، خصوصا الأكثر فقراً» بان كي مون.

ليس في غرض هذه المقالة أن تقف على أسباب وتحليل الأزمة المالية العالمية في النظام الرأسمالي، وذلك لتعقد القضية وارتباطها بتشعبات كثيرة، ليس مجالها هنا. وإنما ستكون المقالة عبارة عن محاولة لفهم ما يحصل، من خلال توضيح تعريفي بالأزمة، ومن خلال شرح أزمة الرهن العقاري.

هناك مثل أميركي يقول: «إذا اقترضت من البنك مبلغ مئة دولار ولم تستطع الوفاء به، فاعلم أنك في ورطة! ولكن، إذا اقترضت من البنك مبلغ مئة مليون دولار ولم تستطع الوفاء به، فاعلم أن البنك في ورطة».

إن هذا المثل يعتبر بمثابة شرح مبسط للأزمة المالية التي عصفت وما زالت تعصف بالولايات المتحدة والعالم. فأزمة «الرهن العقاري»، هي عبارة عن تسهيلات غير مسبوقة قامت بها البنوك، بغرض الجشع للقروض العقارية بأنواعها، وخصوصاً السكنية، ما أدى إلى ارتفاع أسعارها تبعا لذلك. وقد بدأت الأزمة في العام ٢٠٠٧، عندما عجز المقترضون عن سداد هذه القروض، والتي ترتفع وفقاً للمخاطرة. ونتيجة لذلك لم تعد هذه البنوك قادرة على تسلم أقساط هذه القروض.

في العادة كان على المقترض أن يقوم بدفع دفعة أولى لشراء مسكن، ثم يدفع بعد ذلك أقساطاً شهرية محددة «ثابتة»، تستمر ٣٠ سنة أو أكثر من ذلك بقليل، ثم حدثت تطورات بدأت في أسواق العقار الملتهبة في ولايات غرب وشرق أميركا، وفيما بعد شملت بقية الولايات الأخرى وأجزاء أخرى من أوروبا الغربية، هذه التطورت تمثلت في أن سماسرة العقار أغروا الأسر والأفراد بشراء المساكن من دون دفعة أولى، والأهم أنها على أساس أقساط ثابتة لمدة قصيرة جداً، «سنة أو سنتين أو ثلاثة...» ثم يخضع مبلغ الأقساط الشهرية بعد مرور الأشهر القليلة الأولى، التي كانت ثابتة خلالها لتكاليف القروض في أسواق المال في نيويورك وشيكاغو، وإذا تردد المشتري، فيقال له إن قيمة المنزل سترتفع، وبالتالي يمكن إعادة وسائل تمويله. هذا التطور لحقه تطور آخر، تمثل في أن الشركات المتخصصة في تمويل العقار، تبيع سندات الرهن أو القروض التي منحتها لمشتري المساكن بالذات، إلى منشآت أخرى، تخصصت بـ «المضاربة» في شراء وبيع سندات التمويل أو تعهدات القروض. والتطور اللاحق كان دخول ما يسمى بـ «محافظ» تفادي الأخطار، وهذه المحافظ لا تشتري وتبيع سندات القروض ذاتها، وإنما تبيع أو تشتري ما يسمى «مشتقات السندات». وهذا يعني دفع أو قبض جزء صغير من مبلغ السند «آنياً» أو مستقبلاً، أملاً أن يرتفع ثمن البيع في المستقبل، إن تم الشراء آنياً، أو أملاً في أن ينخفض مبلغ الشراء في المستقبل إن كان الشراء مستقبلاً حين يحل أجل الدفع كاملاً، فيكلف مبلغاً أقل لمن وعد بدفع المبلغ في المستقبل. هذه التطورات بالإضافة إلى عوامل أخرى أدت إلى الانهيارات المتتالية التي انفجرت في أيلول الماضي، فانهارت العديد من الأسواق المالية والبورصات، والتي بدأت ببورصة ناسداك، وانهيار شركات أخرى كبيرة بلغت خسائرها عشرات المليارات.

هل تؤثر الأزمة المالية على الوضع الاقتصادي في الوطن العربي؟

العديد من الاقتصاديين العرب واصحاب رؤوس الأموال، أبدوا قلقهم من أن تؤدي هذه الأزمة إلى كساد عالمي حقيقي، حيث تفلس الشركات التي انخفضت أسعار أسهمها في البورصات العالمية، مما يؤدي إلى إغلاق بعض المصانع والشركات الكبيرة، وتسريح العمال، أي انتشار البطالة على نطاق كبير في الولايات المتحدة وأوروبا، مما يعني انخفاض الطلب الكلي على السلع والخدمات التي تقدمها الشركات الأخرى، مما يؤدي إلى انخفاض إيراداتها، وبالتالي إفلاسها، وهكذا دواليك. وحدوث ذلك يعني كارثة اقتصادية عالمية لن ينجو منها أحد لأن بترولنا وهو المصدر الوحيد للدخل لدينا في الوطن العربي، يعتمد على الطلب العالمي، وإذا انخفض هذا الطلب على البترول بسبب الكساد في العالم، فسينخفض السعر بدرجة كبيرة، بل ستنخفض أسعار جميع السلع والخدمات، لأنه لن يكون هناك مشتر، إذا كان ذلك المشتري عاطلاً عن العمل، وليس لديه ما ينفقه سوى على المأكل والملبس.

حلول للمشكلة أم مسكنات مؤقتة للأزمة؟

تقوم خطة الإنقاذ على قيام وزارة الخزانة الأميركية بإنشاء مؤسسة لشراء الديون المتعثرة، بمبلغ ٧٠٠ مليار دولار من البنوك والمؤسسات المالية الأميركية. وفي المقابل ستحصل الحكومة الأميركية على حصة من أسهم هذه البنوك والمؤسسات المالية، كما سيتم وضع قيود على رواتب مديريها، وستقوم جهات مستقلة بمراجعة أداء هذه المؤسسات. هذه الخطة لقيت رفضاً كبيراً داخل الولايات المتحدة وخارجها، وحتى بعد أن أقرها الكونغرس مؤخراً، بعد أن تم تعديل الخطة من قبل أعضاء من الحزبين الجمهوري والديمقراطي. يقول المعارضون للخطة وللنتائج التي من الممكن أن تتمخض عنها، إن دفع ٧٠٠ مليار دولار من الخزينة العامة، أمر غير سوي في ظل اعتماد النظام الرأسمالي والسوق الحرة، وإن الخطة ستفيد الأثرياء في الأسواق المالية لا دافعي الضرائب، على اعتبار أن الخطة تهدف إلى إنقاذ مؤسسات هي شركات خاصة في الأساس، دفعها جشعها وطمعها في الربح إلى اعتماد تصرفات غير مسؤولة، وسياسة إقراض متساهلة تجاوزت قدراتها الحقيقية، ليأتي المواطن ويتحمل وزر خسائرها في النهاية، وهو أمر غير مقبول. كما أن المتمعن في الخطة لا يمكنه أن يرى بُعداً مستقبلياً لها، فهي مدرجة في إطار وقف النزيف ومنع المزيد من التدهور، وليست في إطار معالجة الأزمة، فإيقاف النزيف لا يعني تحسين الوضع، وإنما وقف تدهوره نحو الأسوأ الذي هو الانهيار الكامل. ومن هذا المنطلق يعتقد كثيرون أن الخطة لن تغير الوضع بالمجمل، وهي ذات مفعول قصير الأمد وذات طابع نفسي أكثر من كونه عملية تهدف إلى تقديم دعم معنوي كبير، لإعادة الثقة للمستثمرين في أسواق المال والبورصات، على أمل أن ينعكس ذلك إيجاباً على إنعاش السوق والاقتصاد مرة أخرى.

المصور الصحافي في غزة

مشاهد الموت ... تتخيلها عيناه قبل أن تصورها عدسته

غزة ـ إيمان جمعة

رصاص جنود الاحتلال لا يفرق، فإن لم يرتق شهيد، سقط الجريح، وإن لم يقصف بيت، تقلع شجرة، وإن لم يكن المستهدف طفلاً، فهو امرأة. وتتعدد الأدوات الإعلامية التي يستطيع الصحافي الفلسطيني استخدامها في نقل هذا الواقع المأساوي للحياة الفلسطينية، فهناك القلم والورقة والميكروفون، ومن أهم تلك الأدوات الكاميرا.

فقد أدرك الصحافي الفلسطيني أنه دون صورة لا يمكن للعالم أن يصدق ويتصور مدى بشاعة ما يحدث على أرض فلسطين، لذلك أصبح استهداف الكاميرا وحاملها هدفاً مهماً لجنود الاحتلال، كي لا تصل تلك الصورة إلى حيث تصبح إسرائيل مكروهةً منبوذة.

أشلاء تتطاير

الصحافي محمد البابا مصور الوكالة الفرنسية، يرى أن المصور الصحافي هو أكثر من مجرد إعلامي، فقبل كونه صحافياً، هو إنسان وفلسطيني، لذلك فتعرضه للخطر والكثير من المواقف الصعبة، لا يرجع فقط لكونه حاملاً للكاميرا. وبالنسبة للبابا فقد تعرض للكثير من المواقف الصعبة التي أثرت على نفسيته كثيراً، فيقول مستذكراً بعضها: «في اجتياح جباليا الأخير، ذهبت أنا وعدد من المصورين إلى المكان، وفجأة أطلقت الزنانة الإسرائيلية صاروخاً على أربعة مقاومين كانوا على بعد ٥٠ متراً منا، وما إن وقعت الصواريخ عليهم حتى تناثرت أشلاؤهم وشظايا الصواريخ».

ويكمل البابا بعينين دامعتين: «رأيت إنساناً يموت وتتطاير أجزاء جسده أمامي، وكان من المحتمل أن أصاب معهم بهذا الصاروخ، فلم يكن الموت يبعد عني كثيراً، لم يفصلني عنه سوى ثوان معدودة».

ويشير البابا إلى أنه مر في حياته الكثير من الأحداث والمشاهد الصعبة، لكن هناك مشهداً أثر فيه كثيراً، عندما كان في جباليا أثناء عملية الشتاء الساخن فيقول: «قصف الاحتلال مجموعة من المواطنين بمن فيهم المدنيون والمقاومون، وكانت الأشلاء تتطاير وأنصاف البشر تتمزق، كان مشهداً مؤلماً، حتى إنني لم أستطع أن أصور عندما وجهت الكاميرا تجاه شاب وكان محترقاً بالكامل، وجسده شبه مقطع، ويخرج أنفاسه الأخيرة، ولم يستطع أحد أن يعمل أي شيء».

لا أزال أسمع أنفاسه

ويتابع بصوت مخنوق: «ما زلت أرى وجهه في مخيلتي وأسمع أنفاسه كثيراً، كرهت حينها الكاميرا، وتمنيت أن أفارق المهنة لأنني لم أستطع مساعدته».

وللمصور أيمن الخطيب قصة مختلفة عن البابا، وإن كانت تحمل في طياتها المعاناة نفسها، فقد كان أيمن وزميله في العمل وائل الدحدوح في اجتياح ببيت لاهيا، لإجراء بعض المقابلات مع الناس هناك، وما إن انتهيا من إجرائها وأرادا الخروج، إلا ودبابات جيش الاحتلال تلتف في المكان، ويقول الخطيب واصفاً الموقف: «عندما دخلنا المنطقة لم نكن نرى الدبابات، لكن ما إن خرجنا من البيت الذي كنا نجري فيه المقابلة، حتى كانت الدبابات تغلق الشارع الذي دخلنا منه، وحجزنا في المكان من الساعة العاشرة صباحاً حتى الثالثة عصراً».

وأشار الخطيب إلى أن الصحافي وليد العمري تحدث مع الناطق باسم الجيش الإسرائيلي، والذي أجابه بدوره إنهم لا يتحملون مسؤولية أحد في الميدان، وأن الجندي الإسرائيلي في أرض المعركة لا يأخذ تعليمات إلا من نفسه، لكنهم انسحبوا في نهاية اليوم وخرج الخطيب مع باقي زملائه من المكان. ويضيف الخطيب: «أغلب الوقت بقينا في السيارة بأمر من جندي من جنود الاحتلال، وكانت الجرافة بجانبنا طوال الوقت تتفحص الطريق، إلى أن انسحبوا واستطعنا الخروج».

الصحافي إياد البابا مصور صحيفة «الأيام»، كانت له معاناةٌ أخرى مع الاحتلال فيقول: «الدبابة الإسرائيلية لا تفرق بين طفل وامرأة، ولا تفرق بين صحافي ودكتور، بالرغم من أننا نأخذ حذرنا قدر الإمكان، ونحافظ على سلامتنا لكن مشيئة الله فوق كل شيء».

جسدٌ مقابل صورة

وعن أصعب ما مر به البابا يقول: «أول حدث وصدمة واجهتني كانت في رفح، فقد كنت ألتقط صورا لدبابة إسرائيلية وهي تجتاح مخيم يبنا، وكنت مرتكزاً إلى الحائط، وكان بجواري ثلاثة شبان وطفل صغير، فوجئنا بقذيفة تطلق من الدبابة وتأتي باتجاهنا، انبطحت أرضاً بسرعة، وما إن هدأ الصوت ورفعت رأسي باحثاً عما خلفته القذيفة من دمار، إلا ووجدت أشلاء الشبان الثلاثة متناثرة على جسدي».

ووصف البابا شعوره في تلك اللحظة بالخوف الشديد، شاعراً أن مهنته هي بالفعل مهنة متاعب وشقاء، ولو لم يكن هناك مصورون في غزة، فلن يرى العالم مثل ذلك المشهد».

ويشير البابا إلى أن استهداف المصور الصحافي ليس بالشيء الجديد على مصوري غزة، لكنه أصبح في ازدياد، دون أدنى تحرك من العالم ومن المراكز التي تهتف وتنادي بحقوق الصحافي وحمايته.

هؤلاء وغيرهم الكثيرون، عانوا كثيراً وواجهوا آليات الاحتلال بأجسادهم وكاميراتهم، فمنهم من وصلت صورته لأبعد مناطق العالم، وكشفت زيف ادعاءات الاحتلال، واستمروا في التقاطها ونشرها، ومنهم من دفع حياته ثمناً لتلك الصورة، فهذا هو حال الشعب الفلسطيني وواقع الأراضي الفلسطينية، والتي تعد من أكثر بقاع العالم سخونة من حيث كثرة الأحداث والصراعات، طبيعة هذا الواقع تزيد عبء العمل على الصحافي الفلسطيني، وتحتم عليه أن يخدم شعبه بنقل الصورة الحقيقية للعالم أجمع.

بسبب الفقر في غزة

مهنة الإسكافي تعود للحياة من جديد

خاص بـ«صوت النساء»

لم يترك الحصار مجالاً في حياة الفلسطينيين إلا وطاله حتى الأحذية فالجديد منها شحيح والموجود مرتفع الثمن ورب ضارة نافعة فلجوء المواطنين إلى تصليح أحذيتهم القديمة أنعش سوق الاسكافيين بعد أن كادت كبعض المهن القديمة بسبب شح الطلب عليها على وشك الاندثار من الأسواق الفلسطينية.

سوق تراثي

في سوق شعبي قديم وسط مدينة غزة يعرف بسوق الموظفين يتواجد عشرات الاسكافيين يحتل كل منهم مكانا اعتاد أن يمارس مهنته فيه منذ سنوات بل جلهم توارثوا المهنة عن آبائهم وقد يورثونها لأبنائهم.

ويعمل جل الاسكافيين على إصلاح الأحذية معتمدين على أيديهم وأدوات بدائية حيث يفتقد قطاع غزة لماكينات تصليح الأحذية فلا يوجد منها سوى خمس عشرة يصل سعر الواحدة منها إلى ٤٠٠٠ دولار أميركي أو ما يعادل خمسة عشر ألف شيقل وهو ما يعجز عن توفيره الاسكافيون، لكنهم يعتمدون على مهاراتهم اليدوية حيث أن المهارة كما يرى أبو العبد بركات «٧٠ عاما» هي رأس مال الاسكافي.

ويؤكد أبو العبد الذي يعمل اسكافيا منذ العام ٥٢ أن الاسكافيين درجات أفضلهم من لديه باع وخبرة في ممارسة المهنة ويقول:« أنا اليوم لست كقبل خمسين عاماً فالآن أستطيع أن أعيد أي حذاء قديم وبال إلى هيئة تظهره وكأنه جديد». ويتحدث عن سوق الاسكافيين فيقول: «نحن هنا عددنا محدود في هذا السوق نعرف بعضنا منذ عشرات السنوات والبعض منا قد ترك العمل ليبحث عن مهنة أخرى بعد أن بات دخلنا لا يتعدى أكثر من عشرين شيقلاً في اليوم».

ويستطرد أبو العبد الذي ورث مهنة الإسكافي عن والده فيقول: «هذه المهنة عزيزة علي حتى لو لم تطعم عائلتي خبزاً فقد ورثتها عن والدي وأعمل بها منذ أن كنت صبياً وها أنا قد أعلمها لأحد أبنائي».

رجعت بخفي حنين

يعج سوق الاسكافيين بالرواد طلبا لتصليح أحذيتهم القديمة بعد أن فقدوا قدرتهم على شراء الجديد منها لشحه من الأسواق وارتفاع سعره بعد أن أغلق الحصار الأبواب أمام البضائع الجديدة وليقف سوء الوضع الاقتصادي للمواطن عائقا أمام قدرته على شراء الأحذية.

ويقول أبو العبد: «منذ أن بدأ الحصار عدنا للعمل بشكل جيد جداً حتى أنني بت أحصل على دخل يومي قد يصل إلى مائتي شيقل وهو أضعاف ما كنت أحصله سابقا».

يضحك أبو العبد فيقول: «مصائب قوم عند قوم فوائد وهذه بركات الحصار علينا أن عرف الناس قيمة الاسكافي وبدأوا يبحثون عنا لتصليح أحذيتهم».

ومع ذلك لا يخفي أبو العبد تخوفاته على قوت يومه بسبب الحصار فيقول: «نحن مهددون بفقدان المواد الخام المستخدمة في التصليح كالقوالب والأصباغ والجلود والمقصات والأهم من ذلك كله قطع غيار الماكينات التي نعمل عليها».

وذات التخوفات أبداها أبو محمود حمدان «٥٥عاماً» وهو يقف على ماكينة خياطة أخرى ليتحدث إلينا قائلا: «معظم المواد الخام التي نستخدمها تصلنا من مصر عبر الأنفاق حيث يستوردها التجار بسعر قليل ليبيعوها لنا بأغلى سعر ممكن وما شجع التجار على جشعهم هذا الاغلاقات المتواصلة أما لو كانت الطرق على الأقل إلى الضفة الغربية مفتوحة لتمكنا من استيراد حاجاتنا وبسعر معقول».

ويقارن أبو محمود الذي يعمل في المهنة منذ أكثر من ٣١ عاما بين حجم الدخل وسعر المواد الخام فيقول: «منذ أن حل الحصار أصبح زبائننا بالمئات من كل طبقات المجتمع ففي السابق لم يكن يصلح حذاءه إلا «المستورين» من الفقراء أما الآن فالأغنياء أيضا وأصحاب الدخل يقفون في الطوابير أمام الماكينات لتصليح الأحذية والشنط وغيره ومع ذلك فنحن مازلنا نعاني من قلة الدخل مقارنة مع ارتفاع الأسعار والزبائن أيضا «تستخسر» أن تدفع أكثر من ٣ شيقل في تصليح أي شيء».

وفي أحد طوابير الزبائن تحدثنا إلى عمر زقوت «٣٥عاما» ويعمل موظفا حكوميا فقال: «والله مضطر للوقوف في هذا الطابور أيعقل أن أبحث عن حذاء جديد في كل المحلات ولا أجد..الموجود أصناف رديئة وغالية الثمن».

ويضيف: «وكما يقول المثل بعد عناء طويل رجعت بخفي حنين «ايد ورا وايد قدام» فوجدت أن حذائي القديم ذو صناعة أفضل من الجديد الموجود في المحلات فقررت أن أصلحه».

«وشو عيب الصيني»؟؟

وقبل أن يعض الحصار بأنيابه على قطاع غزة لم يكن يعمل بمهنة الاسكافي في غزة أكثر من عشرين اسكافياً أما الرواد فهم الفقراء حتى شارفت المهنة على الاندثار فمعظم المواطنين خاصة من أصحاب الدخل المتوسط والقليل كانوا يلجأون إلى الأحذية الصينية والمعروفة بثمنها الرخيص فلم يكن يلجأ إلى الاسكافي إلا المعدم.

فعلى طابور آخر أمام ماكينة اسكافي وقف أبو طلحة المصري «٤١ عاماً» برفقة أبنائه الثلاثة يصلح أحذيتهم القديمة وعندما سألناه عن السبب ويبدو من هيئته أن وضعه الاقتصادي جيد قال: «منذ أكثر من شهر وأنا أنزل الأسواق أبحث لأبنائي عن أحذية مناسبة في المحلات لكني لم أجد بضائع مناسبة فالموجود رديء وغالي الثمن». ويؤكد أبو طلحة أن هذه المعاناة تتفاقم يوما بعد يوم بسبب الأنفاق ويقول:«كنا لا نجد البضائع لكن المصيبة اليوم أن البضائع تدخل من خلال الأنفاق ومعظمها بضائع مصرية يشتريها التجار بأبخس الأثمان ويبيعونها لنا بسعر المستورد الأجنبي».

ويشير إلى أبنائه قائلاً: «وهؤلاء أطفال لا يفهمون يرون الشيء في المحل ويتمسكون به وأنا عن نفسي ليس في مقدرتي أن أشتري حذاء بسعر اثنين».

أما أم بشار ظاهر «٤٢ عاماً» فتقول: «كنا لا نعرف للاسكافي طريقاً أما اليوم فمعظم أحذية أبنائي صلحتها مرتين وثلاثاً فمن أين نشتري جديداً لا يوجد بضاعة في السوق وان وجدت فهي أغلى من طاقتنا».

تنهدت أم بشار وأشارت لابنها الذي لم يتجاوز الخمسة عشر عاماً وقالت: «والله ابني ما كان حتى يرضى يشتري أي نوع لازم يجيب ماركات أجنبية بس هلقيت من وين أجيبله ولا في مصاري نشتري ولا بضاعة حتى الصيني مش موجود...ياريت في صيني في البلد وماله الصيني هو عيب؟؟».

أما بشار فضحك وقال: «والله لو في صيني في السوق لأشتري أحذية تكفيني سنتين».

نفط فلسطين الأخضر

جنين: عبد الباسط خلف

مع إطلالة الخريف تُشد الرحال صوب حقول الزيتون، والأسباب كثيرة: فالأشجار المباركة التي حان قطافها تضرب جذورها في الأرض، وتصمد في وجه العدوان، وتمد بزيتها الناس بسر إضافي للحياة والعيش.

من الشجر إلى الحجر

يروي الحاج محمد يوسف أبو أنور: «أعرف كل شجرة زيتون في أرضي، وأتذكر من أين جلبتها ومتى زرعتها، وتحت كل واحدة من الأشجار الخضراء هناك العديد من الذكريات، وطاردت لصوصاً قدموا لأرضي، بدعوى التنقيب عن الآثار التاريخية والذهب، بعد أن سرقوا شجرة قال إنه غرسها في أرضه قبل نصف قرن. يصف أبو أنور الزيتون بأنه أساس البيت، فبدونه لا تستطيع الأسر الفقيرة العيش، وهو لا يحتاج للكثير من الجهد مقارنة بالأشجار غير المعمرة، كاللوزيات قصيرة العمر وكثيرة المرض. نقل أبو أنور عشقه للأرض إلى أبنائه، إذ يعمل أربعة من أصل سبعة في الزراعة بعد أن أدخلوا إليها بعض الأساليب الحديثة، ويوصي دوماً أحفاده السبعة والعشرين بالمثابرة وبزراعة الزيتون في حدائقهم المنزلية، بدلاً من الورود أو الكلام الفارغ كما يصفها.

وينتابه القلق من تراجع المطر، الذي يؤدي لإنهاك الشجر، وبخاصة حديث الزراعة، فيعمد طوال قيظ الصيف لتوفير مصدر ري له بشكل دائم خوفاً من الجفاف، ويرى أن الإهمال وتفريط الأجيال بالزيتون والرعي الجائر من الرعاة، إضافة لندرة المطر من أشد الأخطار التي تحدق بالشجرة المباركة والحنونة كما يسميها.

يعدد الحاج محمد مراحل جمع الزيتون، فيقول:«في تشرين أول يذهب الفلاحون إلى الأرض، ويجمعون الثمار التي تساقطت مبكراً، في عمليه اسمها «الجول»، بعدها يحضرون فراشاً من البلاستيك والخيش ليضعوه تحت الشجر أثناء القطاف، ثم يشرعون في عملهم، فمنهم من يقطف المحصول بيده، ومنهم من يستخدم العصي. ثم تجمع الثمار في أكياس من الخيش وتترك لفترة قصيرة، لحين جمع المزيد من المحصول، بعدها نذهب إلى المعصرة ونحضر الزيت والجفت».

ينهي:«تحتاج شجرة الزيتون للرعاية في مواسم مختلفة طوال العام، كالحرث وإزالة الأعشاب والأغصان التالفة وغير المتناسقة، وأحياناً القضاء على بعض الآفات».

ذكريات جريحة

تبدو التجاعيد العريضة في وجه أم محمد، التي شارفت على اختتام العقد السابع، واضحة للعيان، لكنها تعود لصباها وهي تبحر في «أروقة» ذاكرتها التي تجمعها بشجرة الزيتون المباركة، فالعجوز التي تسكن بعيد قرب جنين، قريباً من الطريق الذي يؤول إلى عدة مستعمرات مقامة على أراضي البلدة الواقعة غربي جنين، لفتت نظر من يقابلها، وتفاجئ من يستمع إلى حديثها العتيق ـ الجديد. تبدأ بسرد ما سمعته في موسم زيتون العام ١٩٨٩، وبالتحديد يوم لقي الحاخام اليهودي المتطرف مائير كاهانا، زعيم «حركة كاخ العنصرية» حتفه في الولايات المتحدة، وبعد أن أقدم مستوطنون على ممارسة شهوة القتل، التي كانت ضحيتها إحدى نساء بلدة ترمسعيا في محافظة رام الله، عندما كانت تتجه وزوجها إلى حقلهما، لاستهلال موسم القطاف، لكنها، وكما تصف أم محمد بدلاً من أن تجمع حبات الزيتون، تلقت رصاصات قاتلة، في كرمها الذي أحبته، وأمام شريك عمرها.

لم تكن قصة «شهيدة الزيتون» في ترمسعيا الحكاية الوحيدة التي تختزنها ذاكرة أم محمد، فقد أعادت لنا ما كانت سمعته قبل أعوام من أحد أحفادها، وما شاهدته في وسائل الإعلام حين تذكرت الأخوين التوأم هلال وبلال أبو صلاح «١٩ عاماً». حينما سقطا في بلدتها بداية موسم الزيتون عام ٢٠٠٠، ولم تنس الشهيد فريد نصاصرة «٢٨ عاماً» من بلدة بيت فوريك المجاورة لنابلس، الذي قضى برصاص مستوطنين عندما كان يقطف زيتونه في تشرين أول من العام نفسه.

ولا تزال ذاكرتها الحية قادرة على استرداد ما حدث لنصاصرة، إذ أطلق المحتلون سراح المستوطنين اللذين قتلاه بدم بارد، بعد ليلة واحدة من الحبس. تروي حفيدتها الجامعية حنان، ما طرق «جدران» ذاكرتها، لحكاية الإدانة التي أصدرتها ما تسمى بالمحكمة العسكرية، على جنود جيشها الذين نكلوا بشبان من بلدة سالم المجاورة لنابلس أوائل الانتفاضة الأولى، عندما أمرتهم بدفع «أغورات» (الأغورة أقل من سنت أمريكي) عقابا لتنكيلهما وكسر عظام فلسطينيين أمام عدسات التلفزة العالمية. تستأنف أم محمد حديثها فتسرد فصول قمع الاحتلال، عندما أصدر قبل عامين أمراً جائراً بحق أهالي بلدة يعبد، إذ طلب جيش الاحتلال من عدة مواطنين، قبل أيام قليلة من انطلاق موسم الزيتون، أن يقطعوا أشجارهم ويحولوها لفحم، لأنهم سيقتلعونها بدعوى تشكيلها غطاء للمقاومين الذين كانوا يعترضون المستوطنين على الطريق الذي تقع الأشجار بمحاذاته.

تضيف: كيف لأحد أن يخرب بيته بيده، وتتحسر على أصحاب الأشجار الذين كانوا ينتظرون جني محاصيلهم، في هذه الأيام العصيبة، لأنهم «أكرهوا» على تخريب بيوتهم بأيدهم.

بين خيارين

جمعت الصدفة عالية الحسن، الحاجة الستينية بنظيرتها حفيظة الزبن (٧٥ عاماً)، في مشفى رفيديا في نابلس قبل ست سنوات، والزبن هي التي هاجمها المستوطنون مع جمع آخر من المزارعين، إذ اعتدوا عليها بالضرب بقضيب حديدي على رأسها، وكسروا جمجمتها، وقد أدخلت العجوز إلى غرفة العناية المركزة في المشفى.

تقول عالية وعلامات الترقب تملأ عيونها وتجاعيد وجهها: «أخاف أن يصعد الاحتلال ومستوطنوه اعتداءاتهم ضدنا في الموسم القادم أيضاً»، وتكاد لا تنسى الحاجة حفيظة وألمها، وما نقله له ذووها من تفصيلات لاعتداءات وهدم وسرقة في حقولهم المتاخمة للمستوطنات، إلا أنهم وكما سمعتهم عالية بين خيارين أحلاهما مر: فإما التخلي عن أرضهم أو بيعها. تقول الطالبة مي إبراهيم التي ترغب بدراسة العلوم الزراعية: «للزيتون الكثير من الإيجابية، فهو موسم له رائحة خاصة، إذ يعمل الجميع يداً واحدة، فيتعهد الرجال بإسقاط المحاصيل عن الأشجار، وتتخصص النساء والأطفال في جمع الثمار التي تبتعد عن «الفراش» الخاص بالأشجار.

شجرة مباركة

تستند أروى، الطالبة الجامعية التي تدرس الخدمة الاجتماعية لما كتبته الصحافية والناشطة في مجال المرأة عطاف يوسف في «صوت النساء» الموسم الفائت تحت عنوان «الزيتون زيتوننا» وتقول: «شجرة الزيتون هي الوحيدة التي يستفاد من كل جزء منها بدءاً بجذورها، وإنتهاء بأوراقها». تكمل أروى: «تتجلى في موسم الزيتون ببلادنا قيم التعاون والتشارك بين أفراد الأسرة الواحدة، وعلى الرغم من العمل المضني، إلا أن الأسرة تتعامل مع الموسم كالعرس، وحتى «الجفت»، وهو بقايا الثمار بعد عصرها، يستخدم لأغراض منزلية كالتدفئة شتاء، والأوراق والأغصان لتجهيز الطابون العربي».

الحصاد الغائب

تقول أم إبراهيم إحدى المزارعات العاملات في حقول سهل مرج ابن عامر: «بحكم الظروف الاستثنائية اضطررت وزوجي وأبنائي الخمسة للعيش داخل المزرعة حيث نعمل، إذ من الصعب التوجه بشكل يومي من المنزل إلى الحقل، بفعل ظروف الحصار، وتضاعف المسافات وارتفاع أثمان المواصلات». تضيف: «أصبحنا نتخلى عن رفاهيتنا وراحة بالنا، من أجل توفير قوت أطفالنا، وعندما ننهي مواسم الزراعات الحقلية، نكمل العام الزراعي بقطاف الزيتون، وندمج أحياناً بين العمل الزراعي في قطاف الزيتون و حقول الخضراوات».

تنفق أم إبراهيم ومثيلاتها، نحو ٧٥٪ من وقتها في العمل، متنقلة بين جمع المحاصيل ورعاية الأبناء وتنظيم شؤونهم وإعداد الطعام والتحضير لموسم الزيتون، لكنها لا تحصل بشكل مباشر على مردود مادي، وبخاصة مع تحول الزراعة في الأعوام الماضية لمواسم محنة، إذ غلفها الكساد وتدني الأسعار. وتبعا لدراسة أعدتها جمعية التنمية الزراعية «الإغاثة الزراعية» قبل فترة، فإن المرأة الفلسطينية تقوم بزهاء ٦٥٪ من العمل الزراعي، الذي يعد بنصيبه الوافر، جزءاً من العمل المنزلي، ولا يعد عملاً مأجوراً، كما لا يمكنها الحصول المباشر على عوائده، بفعل تحكم الرجال بمجمل عملية الإنتاج. وبحسب النقابي عبد الحكيم شيباني من الاتحاد العام لنقابات عمال فلسطين، فإن جنين ورغم كونها سلة غذاء فلسطين، لا يمكن اعتبار العاملات في الحقل الزراعي «قوة منظمة»، رغم إنتاجيتها العالية، لأن العائد المادي لا يصل إليهن بشكل فعلي.

أرقام

تشير لغة الأرقام إلى أن مساحة حقول الزيتون المزروعة في فلسطين، تقدر بنحو ٨٢٨ ألف دونم في الضفة، و١٦ ألف دونم في غزة، وبمساحة إجمالية مقدارها ٨٤٤ ألف دونم.

وبحسب إحصاءات وزارة الزراعة فإن محافظة جنين وحدها تحتفظ بنحو مليوني زيتونة، في وقت عزل جدار الفصل العنصري نحو٦٥ ألف دونم من أراضيها الزراعية.

ووفق إحصاءات رسمية، فإن جدار الفصل العنصري أدى في مرحلته الأولى لاقتلاع ٨٣ ألف شجرة زيتون، جلها من النوع الرومي المعمر والمزروع منذ آلاف السنين، ما يعني تراجعاً ملموساً في حجم إنتاج فلسطين من الزيت، الذي يصنفه المجلس العالمي لعدة أطياف، كالبكر الممتاز والجيد والعادي والمكرر وزيت متبقيات عصر الزيتون المكرر، والزيت النقي.

وتقول أم يوسف، إحدى النسوة اللواتي أتى الجدار على أحلامها وزيتوناتها: «وراء كل شجرة يقتلعها المحتلون حكايات لعائلات وأطفال ونساء وآمال»، وتتمنى أن تشاهد الفلم الذي أخبرها عنه نجلها، والذي يحمل اسم «زيتونات» للمخرجة ليانا بدر.

غبار ودم

تعود أروى للحديث عن مخاوف الفلسطينيات هذا الموسم، كما وثقتها، فبعد سلسلة الأطواق والحواجز الاحتلالية التي مزقت «جسد» الأراضي الفلسطينية، أخذت أشجار الزيتون المحاذية للطرق البديلة والوعرة تكتسي بلون أبيض، بفعل الغبار المنبعث من جنبات الدروب الكثيرة، والذي «سيزيد الطين بلة» تبعا لوصف أم علي وعائشة وأماني، وثلاثتهن مزارعات يعملن في مواسم جني الثمر، وسيصعب مهمتهن، ولا يملكن الخيار بتأجيل استهلال الموسم لما بعد الشتاء حتى يعود الزيتون لعهده الأخضر، وهو يشكل «موسما ماسيًا» في إشارة للمصطلح الذي يطلقه الفلاحون على موسم الزيتون الوافر، بعكس «الشلتوني». تسدل أروى الستار على حديثها بالقول: «كثيرات هن ضحايا لقمة العيش، فلا أزال أتذكر جيدا فاطمة أبو جيش، ابنة بلدة بيت دجن في محافظة نابلس، التي سقطت في يوم الشهيد الفلسطيني ٧-١-٢٠٠١». ودونت في مذكرتها: «إذا سقطت شهيدة، فأطلقوا علي لقب «شهيدة لقمة العيش من أجل الحرية»، والفتاة غادة العيسة «١٩ عاماً» من قرية صانور جنوب جنين، التي طالها رصاص الموت وهي تقطف ثمار الزيتون». تضيف: «غير الاحتلال من سياسته، فبدلاً من أن يسمح للمستوطنين بسرقة ثمار الزيتون أو الاعتداء على الفلاحين، شرع بسرقة آلاف الدونمات بدعوى إنشاء سياج «قتل» فقط ٤٥٪ من مساحة قلقيلية وحدها، ووفقا للجهاز المركزي للإحصاء الفلسطيني، فإن إسرائيل صادرت ١٦٥ ألف دونم في ٧٦ تجمعاً سكنياً، وهجرت ٢٣٢٣ مواطناً، بفعل إقامتها لجدار الكراهية.

شجرة الزيتون... حاضرة فينا؟!!

بقلم: سهير قاسم

لم تكن مصادفة أن وجدناها على هذه الأرض، نشرب وإياها من مياه واحدة، كنا وكانت، عشنا وعاشت، باسقة الأغصان، جذورها في الأعماق مغروسة، فروعها في السماء، نمت على هذه الأرض التي قال عنها «درويش» تستحق الحياة. مع ذكر اسمها ترتجف القلوب في ذاكرة من يبحث لنفسه عن الوجود. إنها شجرة الزيتون التي تشاركنا الهمّ والحياة على الأرض الطاهرة، «فلسطين» التي كرمنا بها الله تعالى بالحياة فيها. شامخة بجوارنا، عرفتنا وعرفناها منذ أدركنا الحياة، كانت وما زالت متميزة، لم تعرف الجفاف، يانعة خصبة، ترتوي من الأرض التي تعبق من دماء الشهداء على مر سنوات طوال، نبحث معها عن لحنٍ نتغنى به، هي الأم والوطن التي ترفع شعاراً للقضية، وواكبتها منذ البذور الأولى، تجددت معها، واقفة لم تعرف الخنوع يوماً، إنها رمز للوطن والعطاء، هي حرية ومنارة للأجيال.

متجددة تبثّ الحياة، نستنشق منها الأمل، يحلو بها العمل والشقاء. في كل عام لنا موعد معها، موسم للزيتون هو ذكرى كبيرة وفرحة للفلسطينيين، أيام خير تحمل في طياتها الذكريات بتنوع أشكالها، الكثيرون ينتظرون بفارغ الصبر هذا الموسم، كيف لا وهو مصدر رزق رئيس لهؤلاء الذين اعتادوا عليها منذ نعومة أظفارهم، الذين تطرب أسماعهم على أحاديث وأهازيج يتفرّدون بها في مثل هذه الأيام.

يتشارك الجميع بوجه عام في إحياء هذا الموسم، كلهم أمل بالإنجاز ونيل الخيرات، لكنهم يحملون الكثير في ذاكرتهم التي تصرّ على الحياة ولا تنسى. تلك الشجرة شاهدة على الأحزان والأفراح، هناك من يحار في أمره، كيف له الوصول إلى أرضه التي باتت معزولة ومحاصرة من قبل المستوطنين، تارة يجازفون ويذهبون إليها، حتى وإن وصلت قلوبهم الحناجر من أولئك القتلة الذين يحولون بينهم وبين جني خيرات أرضهم، وتارة يتولد لبعضهم الأمل في الحصول على تصاريح المرور، لكنهم قلة من يحصلون، يصاب الآخرون بخيبة الأمل في الوصول إلى أرضهم التي ولدوا فيها وطالما قطفوا من خيراتها!.

وهناك أرض مصادرة فعلياً، الموسم أصبح يشكّل كابوساً لهم، كيف الخلاص، لديهم الرغبة والحنين إلى زيتوناتهم، لكنهم مهددون، يبذلون كل إمكاناتهم كي يأخذوا منها الثمر، وحتى وإن كان قليلاً! لكنهم لا يجدون الطريق.

ليس ذلك فحسب، إن في الذاكرة الكثير، هناك من فقدوا عزيزاً لهم تحت هذه الشجرة أو تلك، يتذكرون تلك الرصاصة التي اخترقت الجسد الذي كان يعمل ويكدح من فوق شجرة الزيتون أو أمامها، لا يرسمون الصور تأتي إليهم متنوعة، هو الماضي القريب الذي يأبى إلا أن يكون في كل مكان وزمان، يبدو كأنه استشهد اليوم، ربما كان الأب أو الأخ أو الأخت أو الزوجة وغيرها من الصفات، وقفوا تحت هذه الشجرة عندما تسللت إليهم رصاصة الغدر على غير موعد كي يموتوا واقفين على هذه الأرض. وتبقى شجرة الزيتون شاهدة.

تلك الشجرة تعيد الكثير من الذكريات، تنتصب عالية مترفّعة، هي ليست كالأخريات من الشجر، إنها مختلفة، هي رمز للحرب والسلم، العطاء والأمل، شجرة الحياة، هي من رحل عنها الشهيد «عرفات» وهو يتغنى وينشد لها «لا تسقطوا غصن الزيتون من يدي»؟! باقية تحلق في الذاكرة، وفي الفضاء الرحب، لا تغيب عن أحد، حاضرة فينا ما حيينا، هي شجرة الأرض التي لا تعرف معنى للموت أو الذبول؟!.

مها نصار في سطور

- ولدت مها نصار في القدس العتيقة في العاشر من حزيران العام ١٩٥٤، بعد أن شرد والدها من حي القطمون في القدس الغربية اثر نكبة العام ١٩٤٨.
- التحقت بمدرسة خولة بنت الازور في القدس، ثم كلية الأمة، ثم المأمونية، ومدرسة بنات رام الله الثانوية وخدمت في الملجأ الخيري الارثوذوكسي في العيزرية كمتطوعة.
- التحقت بجامعة بيرزيت متخصصة في الفيزياء، وكانت من أوائل من أسس منظمة الجبهة الشعبية في هذه الجامعة العريقة لتسهم في تأسيس أول لجنة عمل تطوعي في الجامعة وانتخبت العام ١٩٧٤ سكرتيرة لمجلس الطلبة.
- عملت كمعلمة للفيزياء في مدرسة الرجاء الانجيلية اللوثرية حتى استقالتها وتفرغها لقيادة العمل النسوي، ثم حصلت على شهادة الماجستير في الدراسات النسوية.
- اعتقلت على يد سلطات الاحتلال أكثر من مرة وهي على مقاعد الدراسة الجامعية وبعد تخرجها واستمرار نشاطها الوطني. وخضعت للإقامة الجبرية والاعتقال المنزلي.
- أسهمت في تأسيس اتحاد لجان المرأة الفلسطينية العام ١٩٨٠، وانتخبت رئيسة له العام ١٩٩٤، وأعيد انتخابها لمرتين بعد ذلك.
- أسهمت في تشكيل المجلس النسوي الأعلى كذراع من أذرع الانتفاضة الكبرى العام ١٩٨٧.
- أسهمت مها في رفع الصوت الفلسطيني عالياً من خلال علاقاتها الواسعة والمتميزة مع القوى التحررية والتقدمية في العالم، وحازت على جائزة المناضلة النسوية التقدمية (باسيوناريا) من منظمة اليسار الموحد في اسبانيا.
- عرفت بصلابتها، ومبادرتها، وسماتها القيادية العالية واستعدادها النضالي المتفاني، كما عرفت بتواضعها، وحرصها على العلاقة المباشرة مع القواعد النسوية.
- عضو في الهيئة الإدارية للاتحاد العام للمرأة الفلسطينية، وعضو في الهيئة الإدارية لطاقم شؤون المرأة.
- متزوجة وأم لأربعة أبناء.

مها مستكلم نصار: حفر طبقي

شحنت موسيقى «موطني» التي اختارتها لايقاع جهاز هاتفها المحمول، جنبات القاعة الصغيرة في مقر اتحاد لجان المرأة الفلسطينية في مدينة رام الله، وذلك عندما ارتفع «موطني» على صوت النشيد، خيّم صمت على المكان وخطت قليلا نحو المدخل الرئيس للمقر لتجيب على المكالمة الملحة: الطبيب المتابع لوضعها الصحي يحثها عبر الأثير بضرورة اجراء مجموعة من الفحوصات الطبية الفورية، لعلها تساعده في محاصرة مرضها الخطير الذي يتفشى صامتاً خبيثاً في جسدها. عادت مها نصار إلى مقعدها المتواضع في القاعة الصغيرة ترتسم على شفتيها ابتسامة وديعة: «هذا الصديق المزعج عاد يلاحقني من جديد.. هزمته منذ سنوات لكنه مصر على التمدد في جسدي، وأنا مصرة على تحصين مقاومتي لمواجهة خبثه وطرق تكاثره وأساليب انتشاره». اعتذرت عن المكالمة الهاتفية المستعجلة، وعادت تسرد بهدوء مقتطفات من سيرة حياتها غير عابئة بنتائج التحاليل الطبية.

موسيقى هاتفها المحمول أشعلت ذاكرتها، وعبدت الطريق لاستعادة تفاصيل حارتها في القدس القديمة وحكايات مدرستها الابتدائية:«كلمات الانشودة على هاتفي الشخصي تطلق الفرح بداخلي، وأردد كلمات نشيد المدرسة اليومي كأني أغنيها للمرة الأولى. عندما كنتُ طالبة في المرحلة الابتدائية، كنا نطلق كلمات الأغنية بشكل دائم ويومي». أطلقت كلمات الأنشودة بصوت جميل متفاعلة مع اللحن:

يا بلاد الهنا   أنت كل المنى
أنت دوماً لنا   إننا ها هنا
يا فلسطيننا   يا ابنة الأكرمين
سوف تلقيننا   في الوغى صامدين

عرب اننا لن نلين لن نلين
يا بلاد الهنا يا بلاد الهنا

ولدت مها في العاشر من حزيران عام ١٩٥٤ في القدس القديمة، وكان ترتيبها الثالث بين سبعة أشقاء وشقيقات. اضطر والدها للهجرة القسرية من حي القطمون في القدس الغربية إلى شرق المدينة بعد أحداث النكبة الكبرى عام ١٩٤٨، تحتفظ بفضله على تعزيز مواقفها وتشكيل عناصر شخصيتها: «أعترف أنه ترك بصمة كبيرة على مسيرتي الشخصية، والدي سامي مستَكْلم كان مسؤولا عن إطفائية القدس بسبب خبرته في مكافحة الحرائق، تلقى دورات عديدة في مجال مهنته في الولايات المتحدة وبريطانيا، ودرب معظم الاطفائيين في الضفة، وعُين بعد عودة السلطة الوطنية مستشاراً في جهاز الدفاع المدني برتبة عقيد، ووضع مسودة كتاب عن أسباب الحرائق وطرق اخمادها». عزز بداخلي قيماً وطنية وقومية وأخلاقية في أعلى مستوياتها. أذكر أنه كان يرفض مغادرتي حصة الدين الإسلامي في المدرسة، وفرض عليّ وهو المسيحي قراءة القرآن، وأراد تعليمي الدين لغة وأخلاقاً وقيماً. والدتي أيضاً لعبت دوراً كبيراً في مجال تعليمي، وناضلت كثيراً لضمان دخولي الجامعة. أيضاً شقيقتي الكبرى آمال تركت أثراً، بذكائها ومثابرتها واعتمادها على ذاتها بالدراسة والتحاقها معلمة في حقل التعليم، وكذلك لمياء التي عملت سنوات لمتابعة تحصيلها الأكاديمي ونالت درجة البكالوريوس في علم الاجتماع من جامعة بيت لحم».

التحقت مها بمدرسة خولة بنت الأزور، وعلى مقاعدها أنهت دراستها الابتدائية، وفيها تبلورت هويتها الوطنية:«أذكر معلمتي المتميزة عنان الحسيني، كانت شعلة في النشاط الوطني ومتحمسة للأفكار الناصرية التي يطلقها الزعيم المصري جمال عبد الناصر، وكثيرة الحديث عن الحرب القادمة. كانت تحرص دائماً على تهيئتنا استعداداً للمعارك في القدس، بل كانت تحرص على تدريبنا في الصف على تمارين عسكرية، وكيفية الانبطاح أرضاً اذا تعرضت المدرسة للقصف. صدق حدس المعلمة ودقة تحليلاتها ووقعت حرب حزيران عام ١٩٦٧، أذكرُ أيضاً معلمتي التي أحبها جداً فدوى سكجها وكذلك مديرة المدرسة نزهة درويش، كانت متميزة بعطفها وحنانها وكنا لا نشعر بها كمديرة إلا عندما تتناول القضايا الادارية والمدرسية».

أنهت مها المرحلة الابتدائية، ثم انتقلت إلى كلية الأمة المجاورة لضاحية البريد:«فيها أدركتُ انتمائي الطبقي، كانت كلية الأمة لأبناء الأثرياء والأمراء القادمين من الخليج العربي، وعلى مقاعدها اكتشفتُ الفرق بين الطبقات الاجتماعية، وشعرتُ بالتمييز ضدي لأن والدي الموظف لم يكن قادرا على دفع التكاليف الباهظة للتعليم، واضطر لاتخاذ قرار بنقلي للمدرسة المأمونية، وسجل أشقائي في المدرسة الابراهيمية الحكومية. لم أصمد طويلاً في المدرسة المأمونية لاشكالية المناهج التربوية الاسرائيلية التي فرضت عقب هزيمة حزيران ١٩٦٧ على مدارس القدس الشرقية، وأيضاً شغفي لمتابعة دراستي بالفرع العلمي الثانوي. وقع الاختيار على مدرسة بنات رام الله الثانوية، ولم تكن المسافة بعيدة بين رام الله ومنزلنا في ضاحية البريد شمال القدس. لم يكن لدي الوقت الكافي للاختلاط بزميلاتي في المدرسة الثانوية، كنتُ أعمل متطوعة في الملجأ الخيري الأرثوذكسي في بلدة العيزرية شرق القدس تحت اشراف أم حنا سكسك، وهي امرأة عظيمة ومتميزة بمبادراتها الخيرية، كنتُ أساعدها وأنام معها في بيتها في القدس القديمة، والمفارقة أني لم أرتجف خوفاً عندما ماتت السيدة العظيمة بين يدي رغم صغر سني، وأشاع ذلك بين الأهل والجيران أني لا أخشى الموت. في تلك الفترة كانت جارتي ريما بطارسة صديقتي الوحيدة، كنا نتبادل الأسرار والحكايات قبل أن تلتحق بوظيفتها في جامعة بيرزيت».

بعد نجاحها في امتحان الثانوية العامة عام ١٩٧٢، التحقت مها بجامعة بيرزيت، واختارت الفيزياء تخصصاً أكاديمياً. جرى تحول كبير على فكرها ورؤيتها أثناء دراستها الجامعية، خاصة وأن صداقة جيران جمعتها بشبان كانت لهم توجهات يسارية ومن أنصار الجبهة الشعبية: "سبقتني توصية للجامعة تفيد بأني من أنصار الجبهة، ومنذ الأيام الأولى التقيتُ بأحد الأقطاب الطلابية للجبهة رياض العبد رشيد قبل ابعاده قسراً لخارج الوطن، ودخلنا بحوارات نظرية واسعة، ثم أطلقنا عام ١٩٧٣ أول لجنة للعمل التطوعي، وشارك معظم الطلاب بانتخاب هيئتها الادارية، تشكلت الهيئة القيادية للجنة من ستة أعضاء: خمسة من أنصار الجبهة وواحد من التنظيم الشيوعي، وكنتُ الطالبة الوحيدة في الهيئة، وللحقيقة كان أنصار الجبهة يشكلون العمود الفقري للجنة العمل الطوعي الطلابي في الجامعة. بادرت اللجنة لفرض نظام الـ ١٢٠ ساعة عمل طوعي لصالح المجتمع كمتطلب تخرج للطالب".

انتخبت عام ١٩٧٤ سكرتيراً لمجلس الطلبة: على الفور سددتُ فاتورة انتخابي، داهم جنود الاحتلال منزلنا في الضاحية، واقتادوني إلى معتقل المسكوبية، وقد تركز التحقيق على نشاطي الطلابي. كان أول اعتقال قضيتُ فيه أسبوعاً داخل زنازين التحقيق قبل الافراج عني، وأعترف أنني من تجربة الاعتقال الأولى كسرتُ رهبة التحقيق. شهد العام ١٩٧٨ الاعتقال الثاني، كنتُ برفقة زميل الدراسة زكريا النحاس، أحد القيادات الطلابية للجبهة في الجامعة، وعندما فشل جنود الاحتلال في القاء القبض عليه، قرروا اعتقالي لعلهم ينتزعون معلومات تساعدهم على اعتقاله. فشلوا وتمكن زكريا من الاختفاء ست سنوات قبل اعتقاله. تجربة الاعتقال الثانية استمرت أربعة أيام فقط، وتم اطلاق سراحي بعد تأكد المحققين أني لا أعرف شيئاً عن زكريا.

لم يتوقف زوار الليل عن مداهمة بيتها، وتكرر اعتقال مها مرات عدة، لكن العام ١٩٨٨ شهد الاعتقال الأصعب، وقد كانت الانتفاضة الشعبية الأولى في أوجها: «في ليلة شتوية باردة، اقتحمت قوة كبيرة من جيش الاحتلال منزلي في رام الله بعد منتصف الليل، كان طفلاي حنين أربع سنوات ووديع خمس سنوات في نوم عميق لكنهما أفاقا مذعورين، بينما يقضي والدهما هاني نصار أمرا عسكرياً بالاعتقال الاداري في معتقل النقب. بدأ الجنود حملة تفتيش مسعورة، وادعوا أنهم عثروا على مواد تحريضية في غرفة الأطفال. طلبوا مني مرافقتهم، تساءلت أين سأترك الطفلين؟ أجاب الضابط المسؤول: هذا أمر لا يعنينا. قلت اذاً لن أصعد في سياراتكم العسكرية. هددني الضابط بسحبي عنوة وبالقوة. كانت حماتي محتجزة في الجهة المقابلة لشقتي، وبعد اصراري على احضارها، وصلت للاعتناء بالصغيرين وديع وحنين. أذكرُ أن ابنتي حنين أصرت على مسك يدي ومرافقتي للجيب العسكري، وعندما وصلت إلى الجيب طلبت مني أن لا أتأخر، صنتُ عهدها ولم أعترف، لان الاعتراف يعني محكمة وحكما وسجنا، ويعني في نهاية المطاف تأخرا على حنين ووديع. أذكرُ أيضاً أن كل منازل حارتي كانت معتمة دون اضاءة، وعلمتُ لاحقاً أن كل جيراني وأفراد حارتي هرعوا لنجدة أطفالي بعد انصراف القوة العسكرية، كانت ثقتي ولا زالت كبيرة بأهل حارتي، وتعززت قناعتي أكثر بالأهالي وخاصة البسطاء والفقراء منهم.

أعلنت مها أثناء التحقيق في معتقل المسكوبية اضراباً عن الطعام، وصمدت في اضرابها ١٣ يوماً بمواجهة الجلاد: «ألقى المحققون بي في زنزانة منفردة تحت الأرض، ثم أطلقوا تسجيلاً لأصوات أطفال يصرخون وينادون بلوعة على والدتهم، كانت محاولة ساذجة لكسر ارادتي، تحديتها بإعلان الإضراب عن الطعام. تلك الفترة كنتُ معلمة في مدرسة الرجاء الإنجيلية اللوثرية، واتخذت المدرسة قراراً بالاعتصام في مقر الصليب الأحمر تضامناً معي، واتسعت حملة التضامن وزارتني المحامية الاسرائيلية اليسارية ليئا تسيمل، وأقنعتني بضرورة إنهاء إضرابي، وكذلك أعلمني طبيب الصليب الأحمر بخطورة وضعي الصحي إذا واصلت الامتناع عن تناول الطعام، واستجبتُ لنداءات وقف الإضراب. في اليوم الأخير للتحقيق توصلتُ لقناعة أن جهاز المخابرات لا يملك أي دليل ضدي، عندما حاول مسؤول التحقيق اقناعي بالاعتراف أن المواد التحريضية جلبها وديع وحنين من خارج المنزل، وأحضراها للعب بها في غرفتهما، رفضت فكرته وواصلت إصراري على موقفي بأن القوة العسكرية التي اقتحمت المنزل هي التي أحضرت المواد التحريضية. تعرضت بعد ذلك للكمات قاسية استهدفت ضرب رأسي بجدار غرفة التحقيق. شعرتُ بثقل كبير جداً في رأسي أبعد عني شبح النوم رغم حاجتي الشديدة له، لكني كنتُ سعيدة جداً بانتصاري وصمودي وعدتُ مظفرة للصغيرين حنين ووديع. تمكنت والدتي من

وداعا مها...

رحلت... لكن إرثها الوطني والنسوي والإنساني باق فينا

تقرير: فداء البرغوثي

غابت الجيفارية مها نصارعن المشهد الفلسطيني الوطني والنسوي، تاركة وراءها إرثا من النضالات والتضحيات الوطنية التي تشهد على فكرها الثوري المتأصل في أعماقها حد السيف، غابت مها تاركة وراءها إرثا من القيم والمعاني الإنسانية التي جسدتها بعطاءاتها التي لا تعرف الحدود أبدا،غابت مها لكن روحها ستبقى شاهدا على إبداعاتها ومبادراتها وتحسسها لاحتياجات وآلالام وهموم من حولها، كما ستبقى روحها شاهدا على نموذج المرأة الفلسطينية الثورية التي لا تعرف للمساومة عنوان.

فماذا يقول رفاق ومحبو مها وفاءً لذكراها التي لا بد ستبقى حية في قلوبهم وقلوب كل أولئك الذين عرفوها من بعيد أو من قريب.

عبد اللطيف غيث رئيس مجلس الإدارة لمؤسسة الضمير وحقوق المواطن يقول: "نعم مها تستحق منا كل هذا الوفاء باعتبارها شخصية بارزة لوطنها وشعبها وقضيتها، فهي تتحلى بصفات أساسية قل ما تجدها في شخصية واحدة، فمها إمرأة جسورة لا تعرف التردد أو التراجع، كما أنها أمثولة بالنسبة للنساء الفلسطينيات كونها ضربت مثلا أعلى في الإلتزام والإنضباط ودآبة العمل"، ويضيف غيث: "إذا تحدثت عن الفكر التقدمي والنسوي والإنساني، فلا يمكن إلا أن تذكر مها، والتي شقت بدورها طريق النضال الوطني والنسوي والإجتماعي ولم تنس فقراء شعبها ولا همومهم، ناهيك عن نضالاتها السياسية التي لا تعرف الحدود، نحن خسرناها ولكن تقديرنا لها هو الوفاء لنهجها وأدائها وعملها".

أما الدكتورة إصلاح جاد فتقول: "أهم ما يميز مها أنها كانت ملهمة لكل من حولها، كانت لديها طاقة هائلة لاستيعاب كل الآراء المتناقضة والمتصارعة، كما كانت لديها القدرة على الجمع ما بين ذات الآراء المتناقضة والتقليل من قيمة كل ما من شأنه أن يساهم في تعزيز الانقسام والتشرذم، من أجل الخروج بعوامل تساهم في توجيه البوصلة السياسية نحو الهدف الأدق".

كما أشارت الدكتورة جاد إلى تواضع مها عند دراستها الماجستير في التنمية والمرأة والقانون بقولها: "كانت متواضعة إلى حد أنها لم تكن تميز نفسها عن زميلاتها في الدراسة كشخصية ثورية مناضلة لها حضورها المتميز في المجال الوطني والنسوي، وكان لديها رغبة قوية جدا في التعلم والوصول إلى المعرفة الحقيقية، بدليل أنها كانت دائمة السؤال عن أبحاثها وتقاريرها وعما إذا كانت هذه الأبحاث بحاجة إلى تعديل هنا أو آخر هناك، فعلا كانت مثالا رائعة لطالبي العلم والمعرفة وبكل تواضع".

وتعجز الكلمات كما ترى رفيقتها في النضال الوطني ختام السعافين، عن وصف إنسانية ووطنية ونسوية مها، لكنها تقول: "إن مها علمت رفيقاتها في إتحاد لجان المرأة الفلسطينية دروسا يومية، علمتنا المثابرة وكيف نفكر وفكرت معنا، وأعطتنا الكثير كما أعطت شعبها، ولم تكن تبخل بوقتها أو بجهدها أو بفكرها حتى في آخر لحظات حياتها، وكانت تسأل وهي على فراش الموت عن الكثير من القضايا والهموم التي كانت تؤرق مضجعها، كما أنها تذكرت الجميع، الشهداء والأسرى والفقراء والنساء والوطن"، وتؤكد السعافين: "أن العقل الباطن لمها كان الثورة والوطن، ولا فرق ما بين عقلها الباطني وبين ما كانت تتحدث به يوميا".

وأشارت السعافين إلى آخر اجتماع عقدته مها مع الناشطات من الحركة النسوية أكدت من خلاله على ضرورة أن يتم تعميق الحوار النسوي الداخلي والوصول إلى آليات لتناول كافة القضايا بشكل جدي حتى نستطيع أن نحقق نجاحات أكثر". منوهة إلى مدى تألمها للإقتتال الداخلي الفلسطيني واستذكرت ما قالته مها: "يجب أن يصحو ضمير كل أولئك الذين يشجعون على الإقتتال، فالهدف يجب أن يكون الحرص على وحدة شعبنا في وجه الإحتلال".

أما شذى عودة مديرة مؤسسة لجان العمل الصحي فتقول: "مها إمرأة صاحبة موقف، صلبة بأفكارها مؤمنة بقضيتها وقضية شعبها، لا يوجد عندها حلولا وسطية، فهي في القضايا الوطنية كانت تسعى دوما للتحرر، وفي القضايا النسوية كانت تسعى دوما للمساواة والحقوق والحرية، كما أنها كانت ترفض أن تفصل ما بين القضايا الوطنية والقضايا النسوية، أو أن تقدم قضية على أخرى".

وتشير عودة إلى أن مها كانت تمتلك الرؤية والفكر والقناعة الراسخة، ولم تكن تحفظ الكلمات لترددها كما الشعارات الجوفاء، وديدنها هذا التاريخ الحافل بالتضحيات والنضالات فهي بحق الجيفارية الجبارة التي لم يعرف عطاؤها الحدود ولا مقاومتها الكلل والتعب، حتى في ظل صراعها مع المرض، لم يكن همها المرض وحده أو هم أولادها الذين ستتركهم وراءها، لكنها كانت تصحو وتنام على بعض القضايا العالقة في ذهنها وكانت تتمنى أن يطول عمرها يومين أو ثلاثة حتى يتسنى لها متابعة ذات القضايا التي كانت تؤرق مضجعها.

وتتفق رناد زعرب مديرة البرامج في إتحاد لجان المرأة الفلسطينية مع عودة لتؤكد بدورها على خسارة هذه الشخصية الوطنية والنسوية التي تركت بصماتها في مختلف المجالات كونها كانت تمثل الفكر والممارسة في آن معا. فمها بالنسبة لها تلك الإنسانة التي حملت أوجاع وهموم أبناء وبنات شعبها أمانة في عنقها، وراحت تنتصر للفقير والطالب والمحتاج. وتضيف: "وكان أشد ما يؤلمها أن تعرف أن أحدا يعاني هما خاصا وهي بعيدة عنه. وكانت لديها قدرة عجائبية على تفهم إحتياجات الشباب والفتيات بالرغم من أنها أكبر سنا منهم، لكنها قضت حياتها بينهم وبين همومهم وعذاباتهم، لتقدم لهم كل ما بوسعها تقديمه حتى ولو على حسابها الخاص".

أما على صعيد علاقتها الشخصية بمها تقول زعرب: "مها بالنسبة لي هي الأم والصديقة والرفيقة والمعلمة منذ الصغر، كانت تحتضن همومي وتفرح لفرحي وتقرأ أفكاري، رحلت عني بجسدها، لكن روحها ستبقى خالدة في أعماقي إلى الأبد".

من جانبه يقول رفيق دربها وسام الرفيدي: "عرفتها منذ العام ١٩٧٧، منذ أن كانت تتطوع شخصيا لتدريسي مادتي الرياضيات والفيزياء، حتى أتمكن من تقديم امتحانات الثانوية العامة"، مضيفا: "أنا سأتشرف طوال حياتي لأعلن أنها هي التي قامت بتنظيمي للحزب لتربطني فيها علاقة كفاحية ورفاقية عمرها أكثر من ٣٠ عاما، وبكلمات محدودة أستطيع أن أقول" "إنها مخلصة جدا، إيمانها راسخ للغاية، مبدأيتها عالية ويساريتها واضحة تماما، كما أن موقفها العقائدي لم يشبه أية شائبة خلال ٣٠ عاما مضت، رافقتني في العام ٢٠٠٦، كوننا كنا مرشحين للمجلس التشريعي وهذا عمق العلاقات بشكل كبير وللأسف خسرها شعبنا وخسرناها"،

فتحية البرغوثي رئيسة بلدية بيت ريما تقول: "إن مها أكبر من أن تلخص في كلمة أو عبارة أو مقال في صحيفة، لأنك بمجرد أن تقول مها، لا بد ستستذكر كل المعاني الإيجابية التي تتجسد في شخص مها، فهي المناضلة والثورية والأم الحنونة والتي كانت تتعامل معنا كما لو كنا أولادها وجزءا لا يتجزأ منها، فمها ستبقى دوما الأصل ونحن ندور في فلكها"، وتضيف: "ببساطة، مها لها وقع وتأثير من نوع خاص، وبصماتها كإمراة فلسطينية مناضلة وإنسانية وفريدة من نوعها لا بد ستجدها في الأثر الذي تركته على نفسيات كل أولئك الذين تعاملوا معها من قريب أو بعيد".

لك منا كل الوفاء... وعهدا سنتابع مسيرتك النضالية... وسنتذكر دوما أننا إذا توحدنا جذورا توحدا سنابل.

زيارتي عقب حملة التضامن، شاهدت أقدامي متورمة من شدة الضرب، وكنتُ بحالة مزرية وصعبة، لكنها وقفت شامخة أمامي توحي لي باشارات يدها وملامح وجهها، بالثبات والصمود وعدم الاعتراف مهما كلف الأمر. بعد عودتي إلى الزنزانة أخبروني أنها عادت إلى السيارة زحفاً على الأقدام لعدم قدرتها على تحمل المشهد الذي رصدته في ملامحي». تَسلمتْ أواخر عام ١٩٩٠ أمراً بالاقامة الجبرية مع مجموعة من رفاقها، ونجت عام ١٩٩٢ من اعتقال محقق بسبب حملها لكنها تعرضت للاحتجاز المؤقت في المنزل عقب استشهاد الشاب مصطفى العكاوي في أقبية التحقيق: "داهم جنود الاحتلال منازل سبعين رفيقاً ورفيقة، ونفذوا حملة تدمير مريعة في المنازل عقب الادعاء أنهم عثروا على رفاق مختبئين في خزائن بالجدران، أذكرُ كيف حطم الجنود خزائن أبنائي والمكتبة ومزقوا المقاعد بالسكاكين وفتشوا بدقة مخزناً تحت المنزل..كانت ليلة رعب حقيقة فقد فيها الجنود عقلهم وسلوكهم البشري".

في إطار اهتمامها بالنشاط السياسي، كانت مها جزءاً من الحركة النسوية الفلسطينية، وأسهمت في تشكيل اتحاد لجان المرأة الفلسطينية عام ١٩٨٠ وتم انتخابها رئيسة للاتحاد عام ١٩٩٤وأعيد انتخابها بعد سنتين، وأعيد انتخابها للمرة الثالثة عام ٢٠٠٧ وتعتبر ذلك تكريماً لنضالها في صفوف الاتحاد: «أعترف أني كنتُ في البداية ضد فكرة وجود أي إطار للمرأة باعتبارها جزءاً من الحركة السياسية، كانت فكرتي ترتكز على تصور أن الإطار يعزز عملية التمييز العنصري ضد المرأة، ويضعها في قالب منفصل عن الآخر، لكن مع مرور الوقت وتنوع التجارب، بدأتُ أشعر أن هناك متطلبات واحتياجات خاصة للمرأة، وغيرت فكرتي بخصوص أهمية وجود إطار نسوي. بدأ نشاطنا مع لجان العمل النسوي، نحن أول اطار انشق عنها وشكلنا ألوية لجان المرأة الفلسطينية وبدأت الألوية في جامعة بيت لحم وامتدت لبقية المواقع في الضفة الغربية وقطاع غزة. لا شك أن انشقاق الجبهة الديمقراطية عن الجبهة الشعبية، مهد للرفيقات في الديمقراطية تصدر قيادة الإطار النسوي آنذاك، ولعبت الرفيقتان زهيرة كمال وسهام البرغوثي دوراً قياديا متميزاً في هذا المجال. عام ١٩٨٦ قبل الانتفاضة الأولى، طرحنا أول برنامج وحدوي طالبنا فيه بتكتل الحركة النسوية، خاصة وأن الاتحاد العام للمرأة الفلسطينية تشكل من مجموعة أطر نسوية متحالفة مع عدد من الجمعيات، ولم يأخذ أي طابع جماهيري إلا بعد سنوات عديدة لكونه كان سرياً بداية تأسيسه. بادرنا لتشكيل المجلس النسوي الأعلى عام ١٩٨٨ والذي كان يمثل ذراع القيادة الوطنية الموحدة على المستوى النسوي، تم فرز مندوبة عن كل تنظيم سياسي وكنتُ أنا واحدة من المندوبات، ورأى الاتحاد العام للمرأة الفلسطينية بتشكيل المجلس تجاوزاً لدوره، كنتُ آنذاك بين نارين لانني لا أريد أن أشكل خروجاً عن الاتحاد العام، الا أنه تم تجاوز المأزق بطريقة منطقية ودون أي خلافات تذكر».

بعد اعلان اتفاق اوسلو وتوجه المؤسسات نحو بناء المجتمع المدني، انطلقت المنظمات الأهلية بدورها المجتمعي بمشاركة طاقم شؤون المرأة: «ارتكزت رؤيتنا بداية الأمر على أن الطاقم ذراع فني للمفاوضات، في وقت أعلنت فيه الجبهة الشعبية موقفاً واضحاً برفض التفاوض مع حكومة الاحتلال، لكن التوجه الذي جرى عام ١٩٩٧ أدى إلى تحول مسار الطاقم نحو دائرة المنظمات الأهلية، ما جعلنا نعيد النظر بشأن الهيئات النسوية التي تعمل في الساحة بغض النظر عن موقفها من اتفاق اوسلو. أواخر عام ١٩٩٨ آمنا بحقيقة أن تشكيل طاقم شؤون المرأة إنجاز رفيقات درب، يمتلكن نفس تجارب الإعتقال ومواجهة الإحتلال، لذلك بات العمل معهن على المستوى النسوي إيجابياً».

أدركت مها أن الجمع بين البعدين النسوي والوطني سيكون سبباً في تعزيز صمود المؤسسات النسوية برغم جميع الاختلافات السياسية، معترفة أن هناك بعض الخلافات التي يصعب الوصول إلى حلول جذرية لها دون الايمان بمعادلة أن التحالف ينطوي على خلاف، كما آمنت بأهمية احترام العلاقات المتبادلة على الصعيدين الاجتماعي والوطني مع مراعاة خصوصية الانتماءات السياسية عبر تجنب القضايا الخلافية والتركيز على نقاط الاتفاق خدمة للمصلحة الوطنية وتعزيزا للصمود الشعبي:«ساهمت هذه القناعات مجتمعة بتأدية دور أفضل في بناء طاقم شؤون المرأة كائتلاف نسوي يضم الأطر النسوية والمراكز النسوية المتخصصة وناشطات نسويات، وشاركتُ ورفيقتي نداء عواد بالهيئة الادارية للطاقم، وأعترفُ أن مجموعة من القياديات في الهيئة الادارية لعبت دوراً متميزاً في بلورة برامجه وتوجيهها بالشكل السليم، وأجادت سهير عزوني في ادارة الطاقم وتميزت بجهودها البناءة خصوصاً في مرحلة التأسيس التي تطلبت دوراً متميزاً، وتواصل في الوقت الراهن روز شوملي مهمتها ببراعة في إدارة الطاقم، في حين أبدت جميع الموظفات والمتطوعات حرصاً على تماسك الطاقم وتنفيذ مهماته بشكل ايجابي، وساهم الجميع في تسيير البوصلة باتجاه تقريب وجهات النظر حفاظاً على وحدة الحركة النسوية».

التحقت مها عقب تخرجها من جامعة بيرزيت عام ١٩٧٦ معلمة للفيزياء في مدرسة «الفرندز» في رام الله ثم في مدارس وكالة الغوث، ثم التحقت بمدرسة الرجاء اللوثرية عام ١٩٨٢ وعملت فيها على مدار عشرين عاماً إلى أن أجبرها وضعها الصحي على الاستقالة من حقل التعليم عام ٢٠٠٢، لكنها تابعت دراستها العليا ونالت درجة الماجستير من دائرة المرأة والقانون والتنمية في جامعة بيرزيت عام ٢٠٠٧. وتميزت مسيرتها الكفاحية بالعمل الطوعي في العديد من مؤسسات المجتمع المدني إلى جانب عملها في حقل التدريس.

تعرفت مها على زوجها هاني نصار خلال نشاطها السياسي، وارتبطت به عام ١٩٨٦ وكان هاني من أوائل المعتقلين عقب الاحتلال مباشرة عام ١٩٦٧، وقررت المحكمة العسكرية محاكمته وفق قوانين طوارئ الانتداب البريطاني، وأصدرت بحقه حكماً بالسجن المؤبد، لكن صغر سنه انتزع له حكما نهائيا بالسجن الفعلي سبع سنوات. أطلق سراحه عام ١٩٧٣ وأعيد اعتقاله مرة أخرى لمدة عامين سنة ١٩٧٦ وخضع للاقامة الجبرية أربع سنوات بدءاً من عام ١٩٨٠ ثم احتجز ادارياً في معتقل النقب لمدة ستة أشهر منذ شباط عام ١٩٨٨ عندما كانت جمرة الانتفاضة الأولى مشتعلة. أنجب هاني ومها أربعة أبناء: وديع (٢٢ عاماً) الذي أنهى دراسته متخصصاً بنظم المعلومات الادارية من الجامعات الأردنية وحنين (٢٣عاما) وقد أنهت دراستها الجامعية في بيرزيت متخصصة بادارة الأعمال، واختارت أسيراً محكوماً بالسجن ثلاث سنوات ليكون خطيبها، وأهدته يوم الأسير خاتم الخطوبة. والابنة الثالثة داليا (١٨عاماً) التي تنتظر بفارغ صبر امتحان الثانوية العامة وحسام (١٦ عاماً) الطالب في الصف العاشر. بدت ملامح مها منهكة قليلا بعد حوار طويل استعادت فيه سنوات عمرها على ايقاع وضع صحي لا يرحم، قررتُ الاكتفاء بتفاصيل التاريخ الخاطف لمسيرتها، وغادرتُ منزلها بسرعة لعلها ترتاح من ضغط الأسئلة..أعترف أنها متماسكة جداً في مواجهة مرضها الخبيث وتمتلك مقومات هزيمته وسحقه، وأيضاً صلبة جداً لا تساوم على هوية انتمائها الوطني والقومي العربي ودفاعها العقلاني عن منهجها الماركسي ويسارية أفكارها وحقوق الشغيلة وطبقة الكادحين.. وهي حريصة على الحفر عميقاً في العناصر الطبقية لتكشف الأقنعة التي تختفي تحتها حقيقة المواقف المحلية والأقليمية والدولية المعلنة.

ثغرات في القوانين تطال الأسرة كوحدة إجتماعية

زلفى شحرور

لم تصدق أم يافا ما سمعته من رفض أحد البنوك العاملة في الأراضي الفلسطينية، فتح حساب توفير باسم ابنتها إلا بحضور والدها، أو من ينوب عنه من الأوصياء.

احتارت الأم في الموقف، واعتقدت أن ثمة خطأ ما، وبدأت في عملية شرح طويلة لحالاتها، فوالد وحيدتها معتقل ومحكوم بالمؤبد، وهي من ستقوم بتزويد الحساب بالمال من حر مالها الخاص، في محاولة منها لتأمين مستقبل ابنتها من غوائل الدهر، خاصة وأن راتبها يسمح لها باقتطاع جزء منه لابنتها.

وبعد نقاش طويل، اقتنعت أن لا فائدة ترجى، وانها تواجه قانوناً راسخاً لايمكن لها تجاوزه، فأي قانون هذا الذي يمنع أم من فتح حساب توفير لابنتها، ويمنعها من توفير بعض المال من أجل تعليمها في المستقبل؟!.

البنك اكتفى بالقول: إن هذا الجانب لا يتعلق بإجراءاته الإدارية، وانما هو قضية قانونية، لا تخص البنك، وعلى البنك الالتزام بالقوانين الجاري التعامل فيها في الأراضي الفلسطينية.

ويتم المنع في بعض البنوك الفلسطينية التي التزمت القانون وتجاهلته بنوك أخرى، بالاستناد على قانون الأحوال الشخصية في بنوده المتعلقة بالوصاية والولاية، والتي تقتصر على الرجال الذين تربطهم صلة الدم بالأب فقط.

فأي قانون هذا الذي يحمي الطفل من أمه، وهل هناك من هو أحرص على الطفل ومستقبله وأمواله من أمه، وكيف لا تتساوى الأم والأب في هذا الحق أمام القانون؟!

والقانون بهذا المعنى ميز بين الأم والأب في الحقوق بعلاقتهما بأطفالهم، كما أنه حرم الأطفال من محاولات أمهاتهم توفير بعض المال لهم، من جهدهن أو أرث بعيداً عن حسابات الزوج، وعيون عائلته من الرجال في حالة وفاته أو سفره أو اعتقاله مثل حالة أم يافا.

قانون الأحوال الشخصية في بنوده المتخلفة والعائدة إلى عشرات السنوات، يظلم معه الكثير من النساء والرجال، ويحرم الأسرة الاستفادة من جهد الأم والأب، اللذين قضيا الجزء الأكبر من حياتهما في الخدمة العامة.

وفي ثنايا القانون الكثير من القضايا التي تحمل مفاجآت صاعقة للأسرة في بعض القضايا، ومثل مفاجأة أم يافا، هناك الكثير من النساء والرجال الذين يفاجأون بظلم القانون، الذي يحرمهم الاستفادة من جهد الشريك بعد وفاته، ويحرم الأبناء حق الاستفادة من جهد والديه لرعايتهم بصورة لائقة.

وقضايا التقاعد والانتفاع منه واحدة من القضايا التي يجب التوقف عندها، خاصة وأن الموظفين الحكوميين في الخدمة العامة، يحكمهم خمسة قوانين للتقاعد.

القانون لا يسمح للزوج أو الزوجة الانتفاع من المعاش التقاعدي للشريك في حالة وفاته، ويعطي لهم الحق في الراتب الأعلى، في حين يتم الخصم من كليهما، بنسب معينة مقابل انتفاعهما بالمعاش التقاعدي، ولا يتم التعامل معهما كزوجين في هذا الخصم.

كذلك لا يتمكن الزوجان اللذان عملا طويلاً من أجل تحسين مستوى حياتهما، من الاستفادة من هذا الجهد لتأمين حياة كريمة للشريكين في حالة وفاة أحدهما.

المشكلة لا تبدو فاقعة كثيراً بالنسبة للأمهات أو الآباء الذين ما زالوا يقومون برعاية أبناء لهم دون السن القانوني، لكنها تبدو فاقعة في حالة زواج جميع الأبناء، ويفقد الشريك حقه في الاستفادة من تركة الشريك في معاشه التقاعدي، وتضييع جهود الطرف الآخر لتحسين الوضع المعيشي لأسرته، التي لا تنهار مع وفاته، فبيت الأسرة يظل مفتوحاً أمام الأبناء، ولا تنتهي الواجبات الاجتماعية مع وفاة أحد الشريكين، ويتناسى القانون حاجة كبار السن للكثير من المصاريف المالية من أدوية، والاستعانة بمن يهتم ويعتني بهم في ظل التغيرات الاجتماعية الجديدة التي تشهدها الأسرة الفلسطينية، بتضاءل أعداد الأسر الممتدة لصالح الأسر النووية.

ويشكو الكثير من الأبناء من المصاريف الكثيرة التي تترتب عليهم للعناية بوالد أو والدة مريضة، وأن المعاش التقاعدي الذي يتقاضاه الأب لا يكفي لسد هذه الاحتياجات، والأب والأم اللذان بذلا جهوداً كبيرة لتحسين حياة أبنائهم أثناء رعايتهم، لهما لحق في تجنيب أبنائهما أعباء مالية في شيخوختهم لرعايتهم.

وكل قوانين الخدمة المدنية الخمسة حرمت أحد الطرفين الاستفادة الجزئية من المبلغ الذي اقتطع منه لصالح التقاعد، وأعطى استثناء لمتقاعدي منظمة التحرير، ومنحهم حق المفاضلة بين التقاعد أو الحصول على نهاية الخدمة بناء على قانون التقاعد الخاص بمنظمة التحرير الفلسطينية، ولا يستفيد من هذا القانون إلا من فقد شريكه وهو لا يزال على رأس عمله.

القانون يظلم بصورة واضحة وكبيرة كل الزوجات اللاتي يقضين الجزء الأكبر من حياتهن في خدمة المجتمع ويساهمن في دعم صندوق التقاعد من خلال الاستقطاعات التي يتم تشغيلها، ويساهم في دعم خزينة الدولة من خلال دفع الضرائب، ويحرمهن القانون حتى من الاستفادة الجزئية من هذا الحق.

وتعلق القانونية سناء عرنكي على الأمر وتقول: «صندوق الضمان الاجتماعي هو صندوق تكافلي، وظيفته الرعاية والإعالة لكبار السن، وفي القانون لا يجوز الجمع بين راتبين تقاعديين، ويقوم على فكرة الاستفادة للجميع».

وأضافت: «يجب دراسة الحالات وتجميعها، من أجل معرفة الثغرات في القوانين وفي صندوق الضمان الاجتماعي، لمنع التمييز ورؤية مصلحة العائلة كوحدة واحدة». وقوانين التقاعد والضمان الاجتماعي على أهميتها تحتاج من المجتمع الفلسطيني الوقوف أمامها بصور عصرية، تراعي جهود كل من عمل وخدم في هذه الدولة، لضمان حياة كريمة لكبار السن، خاصة وان المعاش التقاعدي هو نتيجة جهد وعمل الشخص ويختلف عن نظام الرعاية الاجتماعية الذي تتبعه الكثير من الدول، بصرف راتب لكل مسن تجاوز ٦٠ عاماً، ولكل عاطل عن العمل.

الحاجة للوقوف أمام هذه القضية تنبع من غياب نظام رعاية اجتماعية في فلسطين، يوفر احتياجات كبار السن في العلاج وبيوت للعجزة ومستشفيات لغير القادرين على خدمة أنفسهم، أو فرز من يهتم بهم في بيوتهم من قبل الدولة، وما زالت الأسرة هي من يقوم بهذه العملية بصورة رئيسية، فمن باب أولى تحرير الأبناء على الأقل من الأعباء المالية في هذه العناية.

نساء وأخبار

صدور دليل نفقة الزوجة والصغار

فلسطين: أصدر مركز المرأة للإرشاد القانوني والاجتماعي، وبدعم من الإتحاد الأوروبي، "دليل نفقة الزوجة والصغار". وأوضح مركز المرأة أن الدليل يهدف إلى رفع معرفة النساء بالإجراءات القانونية، لضمان حقوقهن وحقوق أطفالهن في النفقة، وتقوية النساء اللواتي تتوجه للمحاكم في قضايا النفقة، وتمكينهن من المطالبة بحقوقهن القانونية بأنفسهن.

كما قام المركز بإعداد حلقة متلفزة حول الدليل، تناولت محتويات الدليل وكيفية استخدامه، ووزعت قرابة ٢٠٠٠ نسخة من الدليل على المؤسسات العاملة في المجال، والنساء اللواتي توجهن إلى المركز طلباً للمساعدة القانونية.

كتاباً جديداً يتناول معاناة المرأة الفلسطينية

فلسطين: أصدر "مركز الزيتونة للدراسات والاستشارات" في بيروت، كتاباً جديداً يتناول معاناة المرأة الفلسطينية تحت الاحتلال الإسرائيلي، ضمن سلسلة "أولست إنساناً" التي يقول المركز إنه يسعى من خلالها إلى "تقديم صورة متكاملة عن المعاناة التي يتسبب بها الاحتلال الإسرائيلي للشعب الفلسطيني، بأسلوب يخاطب العقل والقلب وفي إطار علميٍّ ومنهجيٍّ موثق".

وساهم في إعداد الكِّتاب الذي حرّره الدكتور محسن صالح، كل من حسن ابحيص، والدكتور سامي الصلاحات، ومريم عيتاني، وهو يقع في ١١٩ صفحة من القطع المتوسط.

ويقدِّم الكتاب في بدايته نبذة عن المرأة في المجتمع الفلسطيني، ويتناول أبرز حقوق المرأة الفلسطينية في ضوء القانون الدولي والاتفاقات الدولية، ليستعرض من ثم الانتهاكات التي يمارسها الاحتلال الإسرائيلي في هذا المجال عبر اعتداءاته المتكررة، مما يمسّ المرأة الفلسطينية مباشرة كالاستهداف بالقتل والأسر والتعذيب، وهدم المنازل وتجريف الأراضي والمزروعات، أو مما يحرمها من حقوقها الأساسية كالتعليم والرعاية الصحية والحياة الآمنة والبيئة السليمة؛ هذا فضلاً عن استخدامها في كثير من الأحيان كورقة ضغط على زوجها أو ابنها أو أخيها، سواء أكان مقاوماً أم أسيراً أم مطارداً.

ويتناول الكتاب كذلك مشاركة المرأة الفلسطينية في الحياة السياسية منذ ما قبل نكبة سنة ١٩٤٨، مروراً بالفترة ما بين سنتي ١٩٤٨ و١٩٦٧، والفترة ما بين سنتي ١٩٦٧ و١٩٩٣، ومرحلة تشكيل السلطة الفلسطينية وما بعدها، وصولاً إلى مشاركتها في "انتفاضة الأقصى".

مليوني أرملة و١،٥ مليون مطلقة و٤ ملايين أمية

العراق: كشفت نوال السامرائي وزيرة الدولة لشؤون المرأة في العراق، أن سنوات من الحرب تركت العديد من العراقيات أرامل يائسات، تجهلن القراءة والكتابة، ونتيجة لوضعهن المتدهور أصبحن فرصة يمكن للمتشددين استغلالها.

وقالت إن هناك أكثر من ١,٥ مليون مطلقة، ومليوني أرملة، ونحو أربع ملايين إمرأة تجهلن القراءة والكتابة. وكثيرا ما تعاني المطلقات والأرامل اللاتي كن يعتمدن من قبل على دخل أزواجهن.

وكان النظام السابق يوفر للمرأة ضمانات حقوقية لم تعد متاحة في العراق الجديد، وتمت إزالة الأمية بشكل كامل تقريباً منذ أواسط السبعينات من القرن الماضي، وإزيلت الكثير من مظاهر التمييز بين المرأة والرجل في مختلف مجالات التوظيف، وكان عدد الخريجات الجامعيات في عهد صدام حسين يساوي تقريباً عدد الخريجين الجامعيين من الذكور.

وحذرت السامرائي من "كارثة" إذا لم يجر بذل المزيد لضمان حقوق النساء، التي تقلصت أيضاً نتيجة لتزايد الأصولية والطائفية، اللتين حرمتا العراقيات من الحريات التي كن تتمتعن بها ذات يوم.

ونالت النساء، في ظل النظام السابق، حقوقهن بدرجة كبيرة في الثمانينات، بشكل كان بالامكان مقارنته مع الغرب. ومنذ ذلك الوقت أدت الحرب والعقوبات إلى بقاء العديد من النساء داخل منازلهن. وأدى الغزو بقيادة الولايات المتحدة إلى تراجع حاد في حقوق النساء في ظل النظام الديمقراطي الجديد.

أول مأذونة شرعية تتسلم مهامها وتعقد قران ١٠ فتيات

مصر: تسلمت قبل أيام المأذونة الشرعية الأولى في العالم العربي والإسلامي، أمل سليمان، دفاتر المأذونية من محكمة الأسرة بمدينة الزقازيق (شمال القاهرة)، لتمارس عملها كأول امرأة تعمل مأذونة شرعية، بينما احتشدت حولها السيدات المترددات على المحكمة والموظفات احتفاءً بها، وتوافد على منزلها بمدينة القنايات آلاف النساء لتقديم التهنئة، حيث ستبدأ عملها خلال أيام بعقد قران أكثر من ١٠ فتيات، انتظرن إلى حين تسلُّمها مهامها بشكل رسمي.

وتعليقاً على ما اعتبره البعض خرقاً للعادات والتقاليد باتخاذها هذه الخطوة الجريئة، نقلت صحيفة (الجريدة) الكويتية، عن أمل سليمان قولها: "لم أفكر مطلقاً في خرق العادات والتقاليد، بل كنت أبحث عن وظيفة تتفق ومؤهلاتي الدراسية، فأنا حاصلة على ليسانس الحقوق عام ١٩٩٨، ثم على دبلوم القانون عام ٢٠٠٣، ثم ماجستير في القانون العام والعلوم الجنائية عام ٢٠٠٥، ولكن نظراً إلى أني لا أفضل العمل بالمحاماة، فقد تفرغت لتربية أبنائي، حتى أتمكن من الحصول على عمل يناسبني، وبالمصادفة توفي المأذون الخاص بمدينتنا ؟القنايات؟ وهو عم زوجي، وتم الإعلان عن هذه الوظيفة، ووجدت جميع الشروط تنطبق عليَّ، وبخاصة أنه لا توجد أي عوائق قانونية تحول دون عملي كمأذونة". وأضافت: "واجهت صعوبات عدة حينما فكرت في شغل هذه الوظيفة، إذ كان من بين الأوراق المطلوبة مني لاستيفاء شروط شغل الوظيفة، شهادة حُسن سير وسلوك يوقع عليها ١٠ من الرجال، وهو ما وجدت فيه صعوبة بالغة، نظراً إلى عدم تقبل الناس في البداية لفكرة المأذونة المرأة".

ورداً على الذين يرون موانع شرعية تمنع المرأة من دخول المسجد لعقد القران به، أكدت أن "هناك موانع شرعية في بعض الحالات، ولكن عقد القران يتم في المسجد على سبيل التبرك، ولكن ليس هناك ما يمنع من أن يُعقد في المنزل أو في مكتبي مثلاً، في حالة وجود مانع شرعي مثل فترة الحيض".

إنصاف المرأة ...

طريقنا للديمقراطية والوحدة الوطنية

بقلم : د. مها أبو عين

إن الديمقراطية نظام لا يسود، سنابل لا تتكاثر، أرض لا تنمو، إلا إذا توافرت لها عدة عوامل، تشكل محصلتها قواماً رشيقاً لا ينحني ولا ينوب مهما تغيرت الظروف المحيطة به، جسداً متناسق الأعضاء كل عضو فيه له دوره الواضح المميز المستقل، دون أي تطفل أو تداخل للمهام الوظيفية، ليبدو في النهاية كياناً جميلاً .

أسس النظام تستند إلى أربعة جواهر لا بد أن يلبسها من يريد أن ينعم بحدائق الديمقراطية، من يريد أن يطبقها بالفعل دون أية مراوغة أو مساومة أو تناقض وهي: الاعتراف الكامل بالحقيقة واحترام تفاصيلها، الإقرار بمبادئ حقوق الإنسان وتشريعاتها الدولية،الإقرار بحق المساواة بين الأفراد دون تمييز، وامتلاكهم لحرية الرأي والتعبير، التي إن وجدت جميعها سادت حرية الكلمة وحرية المرأة، لنشهد طفولة سعيدة وشباباً طموحاً وفتيات مبدعات ونساء منتجات ومجتمعاً لا يشيخ، واقتصاداً لا يضعف وصولاً إلى دولة صحية جذورها متينة.

أولاً: الحقيقة هي التعامل مع الواقع ومجرياته وأحداثه بشكل مجرد وموضوعي غير مجزأ، بعيداً عن الغضب لأي تعصب فكري حزبي أو ديني. يقول سكاربوروغ: «من لا يعرف أن يغضب هو إنسان غبي، أما من لا يريد أن يغضب فهو انسان حكيم». فالحكمة إذن أن تحتفظ بالهدوء بعيداً عن اي عصبية أو تشنج قبلي، نسمع الآخرين مثلما نسمع أنفسنا، ونتيح لهم فسحة من الوقت والإصغاء كاحترامنا لضمائرنا.

ثانياً: الكيان الديمقراطي السليم لا يكتمل ولا يكون إيجابياً فعالاً إلا إذا توحدت ضمائر (نا+ هم) = نحن + الآخرون، على اختلاف تنوع البشر عقائدياً، عرقياً، إثنياً، طائفياً ونوعياً وحسب ما تقره وتؤكده لوائح وتشريعات حقوق الإنسان. فحق الإنسان على الإنسان الآخر أن يحترم كلمته، وجوده واختلافه، لينهضا بالأفكار معاً، وليتسعا بالمشاريع سوياً، وليحققا التنمية الدائمة لحياة أرقى.

نعم، أنا أريد وبقوة هذا الشيء، لكن هو أيضاً يريد وبقوة. طبيعة حياة الإنسان هي الصراع، ولكن من الذي سينتصر؟ أنا أم هو؟ أنا أم هي؟ هل البقاء سيكون للأقوى، للأصلح، أم للأكثر تقوى؟. صراع طويل تزدحم وتتعقد معادلاته يوماً تلو الآخر، يصطدم كل ثانية مع عجلات التكنولوجيا الرقمية وبحور شبكات الانترنت ومسارات العولمة، لتتسع حلبة الصراع وتشتد روح المنافسة، في عالم أصبحت تحكمه الأرقام وتسيره كواكب لا تنطفىء من العلم والتقدم، التي تدعونا أن نسايرها ونواكبها لنكون في صورة مشهد اليوم ومشهد هذا العصر، بكل ما له وما عليه من سجلات قد تخدم الديمقراطية أو قد تحد من شأنها.

كل الأشياء تتغير كل أقل من الدقيقة الواحدة، حتى يبدو لك أن لون الجدران حولك يتجاوب مع كل ما يلفك ويلف أحاسيس من حولك. وجوهنا، وجوههم، أصبحت يغلفها الحديد رغم رهافة الحس والأنفة والإنسانية والطيبة. أهي وجوه ملونة بالرصاص الصلب؟ بالقصدير؟ لا أدري، ولكنها مطحونة بغربال الزمن والساعات التي رحلت منا كل واحد فيهم وفينا. هم طيبون لأنهم يفكرون، يحلمون ويأملون، يطمحون ويساعدون، لكن أكياس الشقاء ومتطلبات الطموح والسعي والهدف والأولويات تخثرت في وجوههم، كالخميرة التي تحاول الاحتفاظ بتاريخ صلاحيتها! حتى أنها أخذت تصارع التشققات والذبذبات والنتوءات التي تلم بها من كل طرف. جميلة جداً وجوههم بعزها السالف الناطق في رموش عيونهم، رائعة تلك الأهداب التي ترقص دون أن يتكلم صاحبها أو صاحبتها، منذ قرون رحلت وهي تبكي من الفرح، تتجلى من اللذة، تطرب من حسن الراحة. أي وجوه أصبحنا نرى في لحظة اصبحت تتخبط فيها كل القيم دون بوصلة، تتلون فيها الأنفس الطاهرة البريئة، «تتبختر وتتمختر» في زركشة تعابيرها لا لسبب، فقط من أجل ولكي تعيش بسلام وبمنأى عن منغصات النجاح ومحاليل الفشل. نعم نجاح وجوههم أصبح غالي الثمن، لا يحتاج لبطاقات إئتمان أو فيزا كارد أو موقع جديد على الشبكة العنكبوتية، مدون تحت اسم مثلا «فيس بوك». نجاح لا تكفيه كبسولات ومساحيق الأرض والحياة بأسرها، نجاح لا تدانيه أي زهرة وعبيرها. نعم النجاح أصبح لا يقدر بعلامات أو تقديرات، وإنما مقاييسه أصبحت الوجوه، مفاتيحه لم تعد المثابرة والجد والالتزام، وإنما المنافسة إنها رحى الوجوه من أجل كسب صيغة العيش والنجاح بلا منازع أو سلطان.

ثالثاً: حق المساواة بين الأفراد: من يريد نصيباً من الديمقراطية، عليه نبذ النرجسية والسادية والعنصرية، ومن يرغب بمزيد من الاطمئنان والسلام والأمان في مجتمعه، فليبدأ أولاً من داخل منزله ومن وسط أسرته، فالأسرة نواة المجتمع وامتداد أجياله. والمرأة «دينمو» الديمقراطية في حال منحت حق المشاركة في صنع القرار.

يوميات امرأة تبحث عن فكرة

ندى مهري

اتصل صديق بي ليطمئن على مزاجي الإبداعي، فوجده معطلاً في مرآب الانتظار، وبدل ذلك وجدني أتناول وجبة سلطة حفاظاً على لياقتي البدنية، طالما لياقتي الفكرية تعاني شراهة الصمت، وهو الذي اعتاد أن يلقاني ارتشف القهوة المرة، كلما توسعت في خدش حياء الورقة البيضاء بنزواتي الكتابية، لم يجد ما يعلق عليه سوى قوله: «تناولي لصحتي أيضاً». اتصلت بي أمي من الجزائر لتطمئن على أحوالي، بعد سماعها بخبر الهزة الأرضية التي ضربت مصر مؤخراً، فأجبتها بلهجة جزائرية «نورمال»، يعني «عادي»، فتندهش وتواصل حديثها، أتمنى أن أعثر يوماً على تحول في نبرة صوتك، وأن تصلني ذبذباته الأثيرية محملة بشيفرات مختلفة تفوق «النورمال» أي «العادي»، لتسعديني، فدائماً حياتك تتروح بين كلمتي «ماكانش مشكل»، لا مشكلة، و «نورمال»، عادي، كنت أعتقد أن هذه المصطلحات تستعمل في الجزائر فحسب، وأن وجودك في مصر هيأ جزائريتك لاستقبال مفردات جديدة.

ذلك أن أمي تتوقع مني أشياء كثيرة وجديدة في كل مرة، صحيح لقد منحتها بعض الانتصارات الصغيرة امتناناً وعرفاناً وحباً كبيراً واجلالاً لها، أسعدتها ولكنها انتصارات لا تنتظرها، لأنها تتوقعها دوماً مثل نشر قصصي ومقالاتي، وحتى إخبارها أن قصصي للأطفال تدرس في المنهاج التعليمي للصف الابتدائي في الجزائر، ودون علم مني، «نورمال» بالنسبة لها، أو استضافتي في برامج تلفزيونية واذاعية مختلفة، أو حصولي على جائزة الامتياز في القصة القصيرة في فرنسا، وعدم سفري لتسلمها بسبب رفض القنصلية الفرنسية في مصر إعطائي التأشيرة دون توضيح، فهي لم تتفاجأ، قالت لي «نورمال يابنتي»، هكذا طريقتها أيضاً في المواساة.

ولكنها دوماً تتعطش وترنو لأشياء سرية، تلون مزاجها وأيامها التي تنتظر زيارتي في كل مرة، وإضافة إلى ذلك، فأمي أصبحت خبيرة في قراءة صفحات الصحف المتخصصة في الشؤون العربية والدولية، وتحديداً المصرية، وأي حدث يتعلق بمصر إلا وأجدها تتصل بي لتطمئن عليّ، لاعتقادها الدائم أنني موجودة داخل الأحداث، فأجيبها «نورمال»، لا تقلقي، وهذا يثير جنونها.

أحياناً أتصل بصديقتي لأطمئن على أحوالها العاطفية فتجيبني، «نورمال»، وبالتالي لا أنتظر منها شرحاً، ولا تنتظر مني إلحاحاً على معرفة أخبارها العشقية.

كلمة «نورمال» الفرنسية المتربعة على عرش اللهجة الجزائرية، حظها أفضل من بعض الكلمات الفرنسية الأخرى، التي تشوهت بالتصاقها في قاموس اللهجة الجزائرية، لأنها أصبحت دون هوية انتماء، فهي لا تمت إلى اللغة الفرنسية، ولا إلى اللهجة الجزائرية بصلة، وهي تذكرني بمأساة جيل المغتربين الجزائريين في فرنسا، الذين ليس هم بجزائريين وليس هم بفرنسيين.

قلت: هذه الكلمة لم تتركني وشأني، فعندما التقيت بزميل فلسطيني، طلبت منه المساعدة في متابعة بعض الاجراءات المتعثرة والمتعلقة بمناقشة رسالة صديقتي الفلسطينية المقيمة في غزة، عن طريق «الفيديو كونفرس»، بعدما باءت محاولات مرورها عبر معبر رفح للحدود المصرية بالفشل الذريع، فاجأني رده بكلمة «نورمال»، قلت له من أين لك هذا؟ فأجابني هذا ما سمعته وتعلمته من صداقاتي ببعض الجزائريين هنا، ثم سألني غريب جزائرية تقاتل من أجل اتمام الإجراءات المتعلقة بفلسطينية، فقلت له «نورمال»، وما أعنيه سراً ولم يصله، أنت لا تستوعب حجم صداقتي لها، وحجم تعاطفي مع قناديل العلم، رغم كل الظروف الصعبة.

دعوني أوضح لكم لماذا أصبح الجزائري يقول «نورمال» أمام كل فرح أو حزن، لأن ما مر به ليس بالأمر اليسير، كان شعباً يحيا حياة عادية، فبارك في البداية ومنح بسخاء لأقلية أكلت «صحته»، أهدته فتات شعارات وحلويات أقاويل ذات سعرات مرتفعة للتنويم، النتيجة التعرض للتخمة والترهل المعنوي، وأصيبت الحقوق بداء الأنيميا، بسبب قلة المقويات الميدانية، وتعرضت الإرادة الشعبية للسعال الديكي، بسبب التيارات الهوائية المتقلبة.

وما كان على هذا الشعب سوى التواطؤ مع الوضع الملزم، فتحول لزاهد قليل الزاد، كثير الصيام، فاعتنق شريعة اللامبالاة، واعتقد بعبر التكتيكات الميكافلية في عروق عطشانة للبوح، تغير مزاج شعبنا وعاش صدمات كثيرة، قننها وبرمجها عصبياً، وبأن كل ما يحدث أصبح شأناً عادياً، ورغم ذلك، حافظت نوايا الأقلية على وجاهتها ووجاهة التفكير بالنيابة عن الأغلبية، فسخرت مذهب «بافلوف» البائر وسيلة تدجين، فتقاطر الماء الغليان من لعاب شعب فائر بتوقيت الغياب والحرمان، لتظهر أقلية أخرى تعاني الوصايا المفتعلة وهواية البطولات المرضية، فنشرت الرعب والخراب باسم فتوحات جائرة وغزوات باطلة، فسقطت الأغلبية الحاتمية الصابرة المتقبلة للظروف القاسية، بشكل طبيعي بين فكي الوعود المؤجلة والموت الفوري، ونال الشعب ثوابه «السنماري».

ورغم تطاول المحن، تشابكت الأيادي، وانتشرت برازخ العفو فقط لأجل عيون نريد الحفاظ على نضارتها وبراءتها الأولى، لتحرص على ثمار العفو من بعدنا، ما أخشاه أن تحن هذه العيون لعقدة الأقدمين، وتقدم على نقض صلح حديبية القرن الواحد والعشرين. كل هذه الخيبات جعلت من كلمة «نورمال» ليس المقصود منها معنى عادياً، بقدر ما يقصد بها أن الأمر خارق ويفوق الوصف، وتعبير شعبي عن غضب كبير واستياء، في بلد لم يكن يعرف إلا لغة القتل والموت العبثي، الذي حدث في الجزائر في العشرية السوداء، ولم تكن هناك خيارات سوى الهرب أو الموت، فأصبحت هذه الكلمة تضم كل المشاعر المختلفة من حب وكره وحقد وموت وحياة وفرح وحزن... الخ، وكأننا بهذه الكلمة نخفف فجيعتنا ونعزي أنفسنا، وبأن هذه الأمور لا تستحق التهويل.

فاستعمال كلمة «نورمال» في غير موضعها بهدف كبح جماح رعبنا ودهشتنا، بل وأعتبرها صفارة انذار ومخدراً قاتلاً لكل إرادة حقيقية للتغيير، أمام الشعور بالعجز واللاجدوى، لأن ما نعيشه الآن من توتر في كل نقطة من العالم العربي، في فلسطين والعراق ولبنان وسورية والسودان، يفوق العادي أو «النورمال».

«باب الحارة»

تاجر يشعل ثورة مسلحة؟!

بسام الكعبي

أشعل تاجر الحبوب الوطني «أبو شهاب» في الحلقة الأخيرة من المسلسل الرمضاني التلفزيوني الممتع «باب الحارة»، ثورة مسلحة في مواجهة الاحتلال الفرنسي للأراضي السورية، فاتحاً الطريق لاستكمال الجزء الرابع لعرضه مطلع الشهر الكريم المصادف خريف العام المقبل. لكن السؤال هل يمتلك التجار شجاعة كافية لإعلان ثورة بنادق في مواجهة الاحتلال؟ مَنْ يصدق أن التجار يمتلكون هامشاً ثورياً واسعاً لتمويل سلاح للمقاومة دون مردود مادي يتراكم في جيوبهم ولا يهدد تجارتهم؟.

بالإمكان تصديق دور بعضهم في تجارة مربحة للسلاح، ويمكن أيضاً نشر قائمة كبيرة بخدماتهم المجتمعية الخيرية، وعطفهم المتعالي على المحتاجين. لكن تفجير مقاومة مسلحة أمر يبدو أعلى من قامتهم الطبقية. هل يرشدني مؤرخ على مقاومة مسلحة ضد الاحتلال أشعل فتيلها التجار وقادوا خلاياها السرية، باستثناء صرخة أطلقها «أبو شهاب» أمام كاميرا التلفزيون أشعلت بنادق شبان حارة «الضبع» ضد مخفر شرطة الاحتلال الفرنسي وقوضت وجوده؟.

حررت بنادق حارة الضبع بالتحالف مع مجموعة مقاتلين بقيادة زعيمهم «أبو حسن»، عندما لبوا نداء الواجب ونزلوا من التلال المحيطة بالضيعة، خلية مناضلين من الشبان الوطنيين وطلبة المعاهد العليا المحتجزين في مخفر للشرطة، بعد تعرضهم لوشاية مخبر، واعتقالهم أثناء تخطيطهم لتنظيم حملة وطنية في مواجهة الاحتلال الفرنسي. فيما حرر الشرطي «سمعو» الذي التحق بسلك الشرطة، من أجل كشف هوية قاتل والده فقط باعتبارها مهمته اليتيمة، العامل البسيط «أبو عناد» عقب اغتياله بمسدسه شرطياً فرنسياً حاول التحرش بامرأة سورية، ثم خطف آخر لمبادلته بمحتجزين في مخفر لشرطة الاحتلال.

صدق «باب الحارة» في توضيح دور عامل مخزن الحبوب «أبو عناد» في ثورته المسلحة، ووطنية شبان الكليات العليا ومستوى كفاحهم الوطني التقليدي، واستجابة طبيب الحارة لواجبه المهني والبقاء في عيادته، وكشف خيانة «حمدي» المستخدم في سرايا المحتل ومصيره الحتمي.. لكن لم تدقق الدراما السورية جيداً في الهوية الطبقية للأدوار الكفاحية، وغاب عنها الوصول لرؤية واضحة في توزيع الأدوار، ذلك أن خلط الأدوار ربما تبدو مهمة الدراما العربية، وخاصة في هذه المرحلة العربية الرمادية، التي يختلط بها كل شيء دون معايير.

ورغم وطنية غالبية التجار وموقفهم التقليدي تجاه القضايا العربية الأساسية، يصعب الجزم قطعياً بقدرتهم كشريحة طبقية يشغلها المال والحسابات وتغير أسعار صرف العملات، على إعلان عصيان مسلح في أوطانهم المحتلة والانخراط في صفوف المقاومة العنيفة لكنس الاحتلال. التركيب الاجتماعي الطبقي للتجار يكشف حرصهم الدائم على الربح وجني المال وفتح الأسواق أمام بضاعتهم، ودأبهم على استقرار الوضع القائم وضمان مرور آمن لتنقلاتهم. كل ذلك لا يمس بمواصفاتهم الوطنية التقليدية، لكنها سمات لا تدفعهم باتجاه حسم أمرهم لقيادة ثورة مسلحة ضد المحتل. ربما يلتحق في صفوف المقاومة نفر قليل منهم، لكنهم بالتأكيد أعجز من قيادة كفاح مشتعل بالنار.

فَضَح «باب الحارة» سر قوة «أبو شهاب»، وسطوته الشعبية ودوره في تماسك منظومة القيم الاجتماعية السائدة، وإدارة شؤون الحارة ومتابعة كل صغيرة وكبيرة تتعلق بقضاياها المختلفة، كاشفاً مصدر قوة «الزعيم»: تجارته وثروته وعدالة مواقفه وقوة شخصيته ودفاعه عن أبناء حارته، وتوازنه في التعامل معهم ونجدتهم عند الحاجة. ورغم تواضع ثروة «الزعيم» في بيئة معدمة، إلا أنها وفرت له نفوذاً واسعاً استخدمه في حماية سكان الحارة من اعتداءات الجوار، وتعسف رجال الضابط «أبو جودت» الذي يعمل تحت أمرة المحتل الفرنسي، وتحويله زنازين المخفر لتصفية حسابات شخصية وجمع رشوة منتظمة، مستخدماً سلطات وهمية مستندة لسيطرة المحتل.

عندما أوقد التاجر «أبو شهاب» شعلة كفاح البنادق في سورية نهاية حلقات شهر رمضان عشية عيد الفطر المبارك، كانت هيئات مراقبة الأسواق المحلية في الضفة وغزة تتابع حملتها في جمع التمر الفاسد، والشيكولاته الأجنبية منتهية الصلاحية، وغيرها من المواد الغذائية التالفة التي يضخها كبار التجار في الأسواق المحلية المحاصرة بالاحتلال، لمزيد من الكسب «الحلال»!!. إذا كانت سيكولوجية التاجر المحلي بهذا المستوى من الجشع والربح والتلاعب بالأسعار في شهر العبادات ونقاء الضمير، كيف يمكن له أن يقتدي بالزعيم «أبو شهاب» معلناً الكفاح الشامل ضد المحتل. ألم يخطىء باب الحارة عندما سلم إطلاق شعلة الكفاح بأعلى أشكاله لتاجر حبوب وطني بالمعنى التقليدي، لكنه لا يمتلك قامة مرتفعة لكفاح شاق ومرير يتجاوز مواقفه المبنية على قاعدة الحسابات المجردة للربح والخسارة، حتى وإن عصفت محور معادلاتها الرقمية بتراب الوطن؟!

جسدي يحترق

ملك النجار

ليلة الأمس حلمت بأنها ستنجب توأمين، كان لخضرة عينيها الدور الأكبر في تذكر حلمها كنور الشمس، مسحت غيمة البخار التي غفت بكسل على مرآة الحمام، بعد أخذها الدش الصباحي المعتاد، رأت عيون توأميها ترقص متلألئة في صورة عينيها، أيضاً للفرح دمعة تختص به كما للنشوة دمعة وللحزن دموع! بقيت مساحة من البخار لم تغزها كف يدها المدللة أناملها تفهمها، لعمر أيقنت بأنها مراكز الاستشعار لأقصى حالاتها الإنسانية، تناغمت السبابة في رقصتها، هما حرفين اثنين فقط كررتهما ماما، ماما، قرأتها بدلع الأطفال، بحنان تربة الأرض وشوقها لحبات المطر، أرى نفسي اليوم أجمل ... يحق لها أن تتغزل بنفسها، اعتادت لآلاف الأيام أن تبدأ جولة تفقدها لجسدها من الأعلى إلى الأسفل، لكن برعماها قررا عنها هذه المرة، فما أن بدأت بتحسس بطنها حتى انتهت به، رضيت عن نفسها، فهي تحيط بالتوأمين، لم تنس أحدهما، كانا يلعبان، بنتاً وولداً، يجلسان يقابل أحدهما الآخر، يلعبان لعبة (سيم ميم) يضرب أحدهما كفا بالأخرى ويغنيان سوياً، ابتسمت فأشرقت لها غمازتين ناعمتين، سيبدو طفلاي أجمل بهما، انتعش قلبها المسكين. آه لو رأتهما يبتسمان في الحلم، لتعرف إذا ما كان لهما نحت الوجنتين ذاته، غريب أن لا يبتسمان! كل الأطفال يبتسمون وهم يلعبون، كانا ينشدان دون لذة في اللعب، وعندما انتهيا وقفا واقتربا مني، مدا أيديهما لأخذ وردتين جوريتين كانتا بحوزتي،حضرني جوع وقهر لحضنهما، لم ينتظرا، أخذا الوردتين دون لمس يدي وانتقلا بخفة يحملهما بساط ضباب.

اصطدم نفسها الدافئ بأحرف ماما، فجعل صورتها خيال، تناولت الكريم المرطب لما بعد الاستحمام، الأجود والأغلى في العالم، هذا مستوى الهدايا التي أحضرها زوجها لها من دبي، عادة ما تغرق جسدها به جيئة وذهاباً، تارة بنغم من يمشي على بيض، وأخرى برعشة شرايين البرق، لكن هذه المرة اكتفت بتدليك الأخاديد التي تختص بشريعة الأمومة، انتعش حلمها الذي ترعاه نوماً ويقظة، هذا روب الحمام الأبيض الذي تذكرها زوجها به، لن تحتاج لأكثر من ارتدائه أمام صديقتيها رغدة ونادين، ليعلمهما كم يهتم زوجا بها، حضرت الصديقتان اللتان تمتلكان جزءاً لا بأس به من جدول حياتها اليومي، لأكثر من اثنين وعشرين شتاء، رغدة أخذت طريقها الى المطبخ، وهي الذواقة لكل نفحة تصل أنفها، فرائحة البيتزا المميزة لم تشغلها عن إبداء إعجابها بعطر صديقتها (الحب في باريس)، أليس هذا اسم عطرك الجديد، سألتها؟ لم تسمعها ندى، لقد كانت تبدل ثيابها، همس، أجابت نادين بإيماءة من شفتيها! ساد الصمت، يحق له أن يكون سيداً مهيباً إذا ما كان برداً يثلج ناراً تسكن مرقد ميت! همست نادين، إنه في باريس! نمر زوج صديقتنا في باريس منذ أكثر من عام ونصف! خيم نوع آخر من الصمت، صمت من لا يملك حيلة عن رفع الظلم، كسره صوت ندى مقترباً، لقد تأخرت دورتي الشهرية حوالي الخمسة أيام! أجابتها نادين وهي الطبيبة المختصة، هذا وضع طبيعي.

.لكن عادة ما تكون دورتي منتظمة!

.لا يجدر بك أن تقلقي إلا إذا تأخرت أكثر من ذلك.

. على العكس إنني سعيدة فربما أكون حاملاً! قالتها وهي تجلس بقربها تضحك.

شاركتاها الضحك الذي يدفعه البكاء على الخروج عندما ينهكه العمل.

لاحظت تعجبهما مما ارتدت، نعم إنهما القميص والبنطال اللذين أحضرتاهما لي في عيد ميلادي الثلاثين، فإذا ما أحببنا إنسان نقبل هديته مهما كانت لنفرحه، وإذا ما احترمناه نستعملها لنؤكد له مكانته في داخلنا، أما عندما نحتفظ بها لعمر، نجعله يوقن بأنه يستحق أن يحيا فينا للأبد.

.كلامك أشعرني بجوع شديد.

.سأجلب لكما البيتزا، لقد اشتريت لكما عصير الفاكهة الاستوائية، يشعرني بالنضارة كلما شربته، طعمه لذيذ أرجو أن يروق لكما.

.لقد شارفت على سن اليأس، همست الطبيبة!

.ماذا تقولين؟ سألتها الأخرى بشفقة!

.إنها في التاسعة والأربعين.

تناولن البيتزا وعصير الفاكهة الاستوائية، الذي أشعر المضيفة بالقشعريرة هذه المرة، رذاذ المطر الناعم على النافذة، ذكرها بحلمها بذاك الرجل الذي كان ينتظرهما على الجانب الآخر من الحلم المعتم، قدما له الوردتين وأمسكا بيديه واختفوا ثلاثتهم في الظلمة، كان مبهماً، ظله قصير، جسده نحيل، عيناه جاحظتين غائرتين في وجهه الهرم، بدا رأسه وكأنه لم ينبت شعرة واحدة، أغلق الضباب أمامها زجاج النافذة، لماذا خيل لها بان بلورات الماء خارجاً تتسلق جسدا طفليها؟! همت بالخروج للبحث عنهما لولا وجود صديقتيها في البيت، أحست بطلق يختلج موطن الأمومة فيها، هربت إلى المطبخ لتعد القهوة التي اقترحتها، وقبل أن تسمع ردهما جلس إبريق الماء يغلي وحيدا على النار، تركته وخرجت لشرفة المطبخ، انتظرت مطراً اشد غزاره لتطفئ صاعقة البرق التي زلزلتها، وهبتها السماء ما طلبت، قُطع أملي في الإنجاب! هذا ما أنا عليه يا نمر، نادت غائباً بعيداً بصوت لن يصله مهما علا، قذفت بقوارير النباتات التي زينت شرفتها لتسعة عشر خريفاً، نمرها من زرعها، هي من اعتنت بها حتى كبرت وأينعت، زراعة القوارير إحدى هواياته التي يبرع فيها دون منازع، على اختلاف ألوانها وأحجامها وأنواعها، نذل، هذا فقط ما تصلح لزراعته كلما حضرت وأينما ذهبت! زرعتني لمرة واحدة، وتركتني اعتني بحملي لوحدي وذهبت، أنانيتك ولؤمك هما من تسلل وقتلا جنيني، لم تستطع أن تبقى بقربي تسعة أشهر كاملة ولو لمرة واحدة، هذا موقد الباربيكيو خاصتك، أكرهه ككرهي لأنوثتي التي توقدها معه وتطفئها معه كلما حضرت وذهبت.

سمعت صديقتيها صوت لقرقعة كبيرة، تناولت إحداهما قاعدة الموقد المعدنية من يد ندى، بينما أخذتها الأخرى لتدفئها، حاولت تجفيفها بروب الحمام الأبيض، الذي تذكرها زوجها به، لم تفلح، زادها زرقة وبرودة، ساعدتاها على تبديل ثيابها، هذه كأس من النعناع ستهدئك وتدفئك، قدمتها نادين وهي تربت على ظهرها بحنان وحزن بالغين، تعلم الطبيبة بأن تقلب مزاج صديقتها وعصبيتها الزائدة هي من أعراض سن اليأس. رغبت في البقاء وحدها، أحست بهبة من الحرارة تجتاحها، (سيم، ميم، عالدربكة الدربكة)، أخذت المسكينة تدندن بانكسار أغنية توأميها في الحلم، بعد أن ودعت صديقتيها، (جوزك سافر على مكة، جابلك بدلة عالموضة، علقتيها في الأوضة، والأوضة بدها مفتاح، والمفتاح عند الحداد). يحصل أحياناً أن نردد كلمات علقت في أذهاننا، نكررها وكأنها دوائر في اسطوانة، أو ربما تقتحم مخيلتنا صورة لموقف طبع في العقل الباطن، لدرجة يصعب أن نمحوه وكأنه إحدى خلايا الدماغ ... والمحظوظ هنا من تزوده الأيام بكلمات وصور جديدة، فتنفض القديمة كسكن سيجارة يتناثر في الهواء، أما أصحاب الحظ الأقل كندى، من عاندتهم الأيام فنفضت رؤوسهم بجدار صنع خصيصا ليستنفذ الدموع ويبقي الألم! ما لهم سوى العبث بقاموس الكلمات والصور ذاتها، التي تعفن الخلايا العصبية، هرولت إلى غرفتها، تناولت إحدى حقائب رحيل زوجها عن ظهر الخزانة، إنها ما تزال مكدسة بالموديلات لم يبق في خزانتها مكان لتعليقها، معظمها ملابس داخلية وقمصان خاصة بالنوم، تحتفظ ببطاقاتها التي تحمل أسماء مصمميها، أخذت تضحك بسخرية من يحاول التواقح مع القدر، بماذا كان يفكر نمر عندما انتقاها؟ من كان يتخيل؟ هل انتقاها معه أحد؟ وقع نظرها على إحدى القطع الصغيرة باللون الأسود يزينها حرفان ذهبيان، (جي، أن)، يبدو جلياً أنه ليس قياسها لا بالاسم ولا بالنمرة! وليس بحجم شرفها! ولا بنقاء جسدها! ولا بطيب رائحتها! إنه القطعة الوحيدة في هذه الحقيبة التي لا تحمل بطاقة!.

تسألني الدنيا لماذا أحمل اسمك حتى الآن وبعد هذا العمر؟! إنني جبانة، يتيمة الأبوين، لم أكمل تعليمي الثانوي حتى، وأنت حقير وقح، أكرهك، وأعشق بيتي لأنه من سترني لعمر، بيني وبينه عشرة لا يفهم أمثالك معناها، احتوتني فرشتي هذه لآلاف الليالي التي ارتجفت فيها برداً ووحدة، كانت مخدتي خير مستمع لشكواي وأنيني، حتى علبة المحارم الورقية هذه كلما رغبت في تبديلها تخيلتها خادمتي المطيعة، التي سهرت على راحتي وقضت العمر في خدمتي، تستر أسباب ضعفي فأشفق عليها واستبقيها رغم حالها المزري، أكرهك واحتاج لحضن أتسلل إليه كطفلة، أكرهك وأرغب بشدة أن أنجب طفلاً، بل طفلين كالذين رأيتهما في الحلم، كانا يلبسان ثوبين أبيضين فضفاضين، وكأنهما ملاكين صغيرين، ينشدان (الحداد بدو بيضة، والبيضة تحت الجاجة، والجاجة بدها علفة، والعلفة بالطاحونة، والطاحونة مسكرة، فيها مي معكرة، هون مقص وهون مقص، سبع عرايس بيرقصوا رقص). هنا أقبل المقص فاغراً فاه إلى هدايا نمر، ابتدأ بالفستان الحريري الفضي، سارع بطريقه إلى قمصان النوم التي لم تريها النوم، ظهرت وردة حمراء كانت قد زرعت في خاصرة سواد فستان منسي كما هي حياتها، أسدلته على جسدها الذي يحترق قهراً، فاختبأ المقص خجلاً من جمال وردتين، وكمروحة اسبانية متموجة برزت ثنايا الفستان قوسية ناعمة تلتف حول ساقيها، امتدت أكمامه على طول ذراعيها المهجورتين، تسال هل هناك من أغفو على كتفيه وأتحسس ذوائب شعره ولهيب أنفاسه فيراقصني؟ أليس من أجل هذا اشتراك؟ تكاد هداياك التي هجرتني لتحضرها لي أن تسرطن خلايا جسدي الطاهر، نمرها غاية في الكرم، أهداها ثلاثين قارورة عطر، لكنها نسيته عندما ثار العبير يغمر جسدها الليلة، وتذكرت سائق التاكسي عندما سألها عن عطرها ليشتري لزوجته مثله، تحتار دائماً عند انتقاء حذاء يناسب ما ترتدي لكثرتها، لكن هذا المساء سهل ذلك، فالأسود المخملي الأكثر علواً يناسب تماماً قدميها الصغيرتين الناعمتين، هذا ما أكده جارها صاحب مصنع الأحذية، عندما عرض عليها أن تكون قدميها الموديل لأحدى دعايات مصنعه، فابتسمت بتهذيب رافضة الفكرة.

طالت أشعة القمر هذه الليلة، وتقصدت ندى أن تتذوق وقع القمر على وجهها الراكد، فأطفأت النور. نعم إنه ذات القمر الذي يحدث المد والجزر في مياه الأرض، أضاءها الليلة، ضمت شعرها الذي يميل إلى القصر في مشبك أسود، فبرز وجهها الذي إكتفى بالدائرة القمرية صبغة له، إنها مدعوة الليلة هذا ما كان عليه شعورها، نظرت إلى السماء المزينة وناجت حبيبها الواحد، بعينين ذليلتين رافعة يديها: يا رب، لمع في بنصرها الأيسر نجم، بهت في القلب فجأة، فخلعته لتنقذ إصبعها من اختناق، رفعته أكثر لتشتكيه لعين القمر، فطار الخاتم الماسي بعيداً! لم يستطع البدر أن يبيت في قطره لحظة واحدة، أرادت بشدة الخروج فاستوقفها مغلف هدية على الطاولة، تناولته، فتحته بعدما أغلقت باب بيت نمر، ما أجمله، انه طوق رقبة مخملي، تجلس عليه وردة جورية صغيرة، تشبه لحد كبير وردة الفستان، قررت أن ترتديه فوراً، كادت حلقتا الطوق تلتحمان، لولا سيارة غريبة توقفت أمامها فجأة ! أمام الحديقة التي فاضت بما زرعها نمر! فُتح باب السيارة المقابل لندى، ليظهر شبح ذاك الرجل الذي سرق حلم أمومتها! ناداها بصوت ضعيف، ضعيف، عرفته، حاول نمر الوقوف للمرة الأخيرة أمام ندى، لكنه سقط أرضاً، مدت يدها التي ما زالت تحمل الطوق لتساعده على الوقوف، بدا ثقيلاً بما تحمله عينيه الجاحظتين من ذنوب، رغم وزنه الخفيف،أراد التشبث بها ممسكاً بحزام فستانها، فسقطت وردة الفستان عليه كصخرة، عاد أيضاً هذه المرة ولم يطل البقاء بجانبها، ولو لتسعة أشهر، لمرة واحدة فقط! لأن سرطان البروستات لم يمهله أكثر من تسع ساعات.

من خلجات الضمير !!!

بقلم: ثروت زيد

الصيف على الرمال ضيق وحزين، شاطيء ميت خال تتناثر الجثث على جنباته، قلوب مكسورة لا يلملم جراحها، أقنعة سوداء تَجوب المكان، في كل زقاق تتمدد. الأطفال فقدوا طفولتهم، نساء تصرخ بعد أن جف الدمع على عزيز، كهل يردد إنا لله فمتى إليه راجعون، دفء باطن الأرض خير من ظهرها، أيام اندثرت بكل ما فيها، الألوان على ألسنة المنتفخين تداخلت حتى زاغ البصر، نار الفتنة حصدت أرواح البشر، تشريد للبعيد عن أشعة الشمس، قلة هم من يتجاوزون لحظات الألم ليبحثوا عن ملامح فرح في أعماق مفقودة، إذلال ذوي القربى أشد من التعرّي على أطراف الرمال هرباً من لظاها إلى أقفاص المتربصين بها.

أحقاد تغلغلت في النفوس لدرجة إحلال سفك دماء حقنت لأمر جلل، أدوات دمار نسفت ما تبقّى من الشفاه الضاحكة، استبسل بائعو الموت لاسترضاء أسيادهم، فتوى تنتزع بين الرمال الهائجة، محارم الأمس حلائل اللحظة، سلاطين مؤدبين، إنهم يهرولون صوب سراب ذا بريق مفقود، مياه البحر لوّثها الزبد المتناثر من الأفواه الحاقدة، سيادة بلون باهت مجزوءه، كراسي تدور عكس الوقت ليموت قبل اكتمال الدورة، جسد هزيل تنفرط أجزاءه مع أول لكمة، ينفخ في الكير بين البحر والنهر فتزداد البوابات والجدر والمعابر، ترتفع أصوات المنتصرين! يزداد المحتاجون عوزاً وتكثر البنادق المأجورة!

رايات تنكّس بلا حداد، تنال الكلمات الهزيلة من موروث الأجداد، الكل قابض معصمه المخدوش يضغط على الزناد، سيلان الدم ينزف على رؤوس الأشهاد، الأخوة المجتمعون يبحثون بدافع ومسؤولية، يصدرون ما اعتدنا سماعه، شجب وإدانة وتأكيد ثوابت، ما للحمة من سبيل، كأن ما حدث مع الأشقاء في الشقيقة حيث كنا لم يكن إلا عارض لن يتكرر، رعب من مخزون الذاكرة، كلما خرجت أصوات تنادي حي على البناء، زاد الهدم لتستمر دعوات الوفاق، حتى الأشجار إن قلمت أغصانها دون دراية تجفّ وتفنى.

يزداد القاعدون على المدرجات، الساحة تترك لمن يرغب بالقفز، النتيجة محسومة خسارة يتلوها ضياع، البيت تصدّعت أركانه، لا يحتمل لعب الأطفال وأهازيج الأمهات على غائب، انفض المتعاطفون المتضامنون، منهم من حرص على ألا تنتقل العدوى، وآخرون وجدوا أن المهمة أنجزت، لكن العارفون بعلم الوراثة يرقبون من بعيد تطور الجينات، يزرعون الدموع في نفوس المكظومين علهم يصبحون بكائين، لم يغب عن بالهم أن الإرث دسم وسمين، ذاكرة الأطفال رطبة لا تستكين، ما يقلق مضجعهم أن تجربة الاندثار فشلت منذ حين.

ما بالنا نطيل التفكير، نغرق بالتحليل، الأحوال لا تستدعي أن نصاب بالذهول والخمول، نسمات الصمت لا تتفق والبكاء والعويل، تسارع الأحداث تتطلب تدارك المواقف، لا بد من انحسار العبثية والحد من انتشار الوباء، الوقاية لا تكفي دون نجاعة العلاج، الجدة كانت تشرب الأعشاب للحد من الأنفلونزا، الحنظل بمرارته أقل ألماً من مغص كلوي حاد، اجتثاث الأورام شر لا بد منه، في الكي علاج، يكفي هجاج، يكفي تنقلٌ بين الرمال والطين اللزج، التعايش مع الأموات لا ينفخ بالجسد الحياة، الكلمات العذبة ذات الشجون لا تحمي من لدغة البعوض وإن استهين بها، رومانسية حالمة على شواطيء مدمرة لن تجعل من الصحراء جنة موعودة، كفوا ألسنتكم عن جراح تنزف، عيون الثكالى بالدمع تذرف، أمل مفقود تطايرت أشلاءه، فمتى سيعترف القوم أنهم قد نقضوا العهد والوعد، احلوا ما حرم الله، سفكوا الدماء، عاثوا في الرمال فساداً، أما آن لبعض المعاني أن تتحرك في خلجات الضمير؟ متى ستدق ساعة العمل؟!!

الطفل الفلسطيني هو الاكثر حساسية وتاثرا بالفقر

ابراهيم ابو كامش

من خصائص المجتمع الفلسطيني أنه مجتمعا فتيا، فيه يشكل الأطفال التي تقل اعمارهم عن ١٧ سنة اكثر من النصف. وبالتالي فان أي ارتفاع أو إنخفاض في مستويات المعيشة في البلد يؤثر بشكل كبير على الطفل. كما وأن معدل عدد الأطفال في كل أسرة فلسطينية يبلغ حوالي أربعة أطفال، مقابل إثنين بالغين غالبا ما يكونا الأب والأم. وبالتالي فان تردي الأوضاع الإقتصادية للأسر الفلسطينية يؤثر على أربعة أطفال وعلى بالغين في داخل الأسرة، أي ان عدد المواطنين من الأطفال الذين يتأثرون في داخل الأسر هو الاعلى مقارنة مع البالغين.

يقول الدكتور حمدي الخواجا منسق الإئتلاف الوطني لمكافحة الفقر في فلسطين، (لصوت النساء) أن الأطفال أكثر حاجة للعناية الصحية والتعليمية والإحتياجات الغذائية والترفيهية لضمان نموهم بشكل سليم. وبالتالي فان أي انخفاض في مستويات المعيشة وارتفاع في معدلات الفقر تؤثر بشكل سلبي على النمو الجسدي والذهني للطفل، الشيء الذي يؤثر على كاهل ومستقبل الدولة، وعليه فان وجود مقومات العيش السليم للأطفال أساس في مستقبل مزدهر للدولة. فالأطفال هم شباب المستقبل ونموهم السليم يؤهل لمجتمع معافى وتنمية جيدة.

ويؤكد ان الفقر يفرز مظاهر اجتماعية سلبية اخطرها الجنوح والتسول والتشرد وعمالة الأطفال. وهذه المظاهر وإن لم تكن واضحة في المجتمع الفلسطيني إلا أننا بدأنا نلاحظ شيء منها،

واشار د. الخواجا الى أن نسبة الأطفال العاملين سواء بأجر أو بدون أجر (أعضاء أسرة غير مدفوعي الأجر) قد بلغت ٤,٦٪ من إجمالي الأطفال في الفئة العمرية ٧-١٧ سنة، بواقع ٦,٥٪ في الضفة الغربية و١,٧٪ في قطاع غزة،

وقال أن نتائج الإحصائيات أظهرت أن أكثر من ثلثي الأطفال العاملين في الأراضي الفلسطينية (٧٤٪) يعملون لدى أسرهم بدون أجر (٩٦٪ من بين الإناث العاملات و٧١,١٪ من بين الذكور العاملين)، مقابل ٢٠,٩٪ يعملون كمستخدمين بأجر لدى الغير (١,٦٪ من بين الإناث العاملات و٢٣,٥٪ من بين الذكور العاملين).

وأضاف في اخر بيانات نشرها الجهاز المركزي للإحصاء الفلسطيني حول مستويات المعيشة، اشارت الى ان اكثر من ٥٤٪ من الاسر الفلسطينية تعيش تحت خط الفقر. واطفال هذه الاسر اكثر عرضة وتأثرا من كبارها.

بعض الحقائق والاحصاءات العالمية والفلسطينية.

وذكر أن نصف العالم (٢,٨ مليار) يعيش الواحد منهم بأقل من ٨ شيقل في اليوم، أكثر من ٨٠٠ مليون شخص في العالم منهم ٣٠٠ مليون أطفال ينامون كل يوم جوعا، ويموت كل سنة ٦ ملايين طفل في العالم تقل أعمارهم عن خمس سنوات من سوء التغذية، ومن بين كل أربعة أشخاص في العالم يوجد أمي واحد.

وبين د. الخواجا أن دخل المواطن الفلسطيني اليوم أقل من ربع ما كان عليه في عام ١٩٩٩، وعدد الفقراء أصبحوا أربع اضعاف العدد في ١٩٩٨، ونصف الشعب في الضفة وثلاثة أربعاعه في غزة فقراء، في حين وصل عدد العاطلين عن العمل ١٧٧ الف شخص يعيلون مليون فرد، وأن الذين يعملون هم من الذين يتقاضون اجر، والثلث الباقي موجود في شريحة العمال لحسابهم،

وقال الغني في وطننا يزداد غنا والفقير يزداد فقرا: وأفاد أن أغنى ١٠٪ من الناس يستهلكون ٣٧٪ من إجمالي الإستهلاك في الوطن، وان الذين يحصلون على مساعادات طارئة وهم ليسوا بحاجتها يشكلون ٤٤٪ من الناس، في حين يشعر ثلث الأسر بالخوف من الأمن الغذائي، منوها الى أن ١٢٪ من الأسر لا يتوفر لها الغذاء الكافي.

وذكر أن نسبة الأطفال الذين يعانون من فقر الدم ٣٦٪، ونسبة النساء اللواتي يعانين من فقر الدم وصل الى ٣١٪، مؤكدا أن ٨٢٪ من الناس لن يتمكنوا على بناء مساكن تأويهم خلال العشر سنوات القادمة، وان عدد الأميين في المجتمع الفلسطيني وصل الى ١٣٧ الف أمي، ثلاثة أربعاهم من النساء.

ودعا د، الخواجا المجتمع الدولي والسلطة الفلسطينية للقيام بواجباتها تجاه الشعب الفلسطيني، وذلك من خلال الإستناد الى أهداف الألفية للتنمية في العملية التخطيطية والتنموية، وتوفير العمل اللائق، والحماية الإجتماعية اللائقة له، بما في ذلك زيادة مخصصات التعليم، والصحة في الموازنة الفلسطينية، واطلاق صندوق الحماية من البطالة.

وشدد على ضرورة السعي لإنشاء صندوق اقراض الطالب في الجامعات والكليات والمعاهد العليا، ضمن تشريعات خاصة بالصندوق، مشيرا الى أن الإئتلاف لا يغفل في حملته عن ممارسات سلطات الإحتلال الإسرائيلي، التي أفقرت الشعب الفلسطيني على مر السنين الماضية من سنوات الإحتلال.

وأكد د.الخواجا بأن العمل اللائق والحماية الإجتماعية اللائقة، هي حق لكل مواطن ومواطنة، وان هناك بعض الأمور تعد حقوقا بموجب القوانين الدولية والمحلية منها: الرعاية الصحية الشاملة، الوصول الى التعليم، مخصصات التقاعد، مخصصات الامومة والطفولة، مخصصات البطالة، مستحقات الإعاقة، تعويضات حوادث العمل والمرض، ومخصصات الأسرة التي لا تجد معيلا.

امرأة بلا قيود

عماد موسى

تنهض من نومها فجر كل صباح ، تتوضأ وتصلي و تدعو لأبنائها بالصحة و طول العمر ، و أن يبعد عنهم أولاد الحرام ،

توقظ البنات و البنين و تلبس الصغار و تحضر لهم طعام الإفطار و تجمع الأطباق و تغسلها وتعيدها إلى مكانها ، ثم تكنس و تنظف أرجاء البيت و خارجه ، و تحمل .زوادتها وقنينة ماء وتفتح باب الدار لتلج منه إلى حقل الزيتون لتواصل رعايتها لكل شجرة فيه، وما أن تهب رياح الخريف حتى .تحزم زوادتها وسلم وفرش وكل ما يلزم لقطف الزيتون لتتوجه إلى حقلها الذي رعته منذ أن كانت طفلة تجمع حبات الزيتون المتناثرة هنا و هناك ، ومرت السنون وبقيت تعمل دون ملل أو كلل هي و زوجها فلا أحد يقدر تعبها ماديا و معنويا ، ولأنها في هذا الخريف على موعد مع قطاف الزيتون تلملم ما تبقى من .نشيج الروح ومن بقايا جسدها المتهالك حاملة هما عبر محطات تمخضها الوجع و الحزن و المرض فكلما مر عام عليها ا زداد إيمانها الفطري بدورها الاجتماعي و الوظيفي .

أما في هذا الخريف فقد أطلت على دنياها وحيدة غريبة فقد رحل عنها زوجها إلى غير رجعة و ذهب الأولاد مع زوجاتهم و البنات مع أزواجهن ، فمن يأتي اليوم لمساعدتها ، لا أحد. فقد أضحت وحيدة، واحدودب ظهرها و تجعد وجهها و شاب شعر رأسها وهزل جسمها ومع ذلك ما تزال تتمتع بإرادة و قوة وعزم ، وتقول لجيرانها الذين يقطفون الزيتون سأبقى على هذه الحال حتى يقضي الله أمراً كان مكتوبا .

لن أحتاج إلى الناس ولن أمد يدي إلى أولادي أو بناتي سأبقى أعمل حتى أرحل ، فهذه الأشجار هي آخر ما تبقى من أفراد أسرتي فأنا أنتمي إليها وهي مني..

وما أن تنتهي مرحلة قطاف الزيتون حتى ترسل ما جمعت يداها إلى المعصرة ، فتأخذ زيتها و ترحل عائدة بيتها مع زيتها . قبل أن يهدأ الزيت في جراره ، و قبل أن تعرض جزءاً من إنتاجها للبيع و في مساء اليوم التالي يهرع أولادها و بناتها وأزواجهن مسرعين سائلين عن حصصهم ، فيحمل كلمنهم حصته من الزيت و يرحل قائلاً كل منهم : ربنا يعطيك الصحة حتى نبقى نأكل زيت و زيتون .

صمتت الأم و بلعت ريقها كبتت غصتها فالموقف يتجدد كل عام و لكنهم أبناءها و بناتها ، أطلقت صوتها الحزين و أخذت تبكي ماذا تفعل فهي تحب بلا حدود و تضحي و تجود بالموجود و تعمل بلا قيود .وعند الحقوق تتحول حقوقها إلى واجبات فهي الأم ، أما عن واجباتهم فتنحصر في الحصول على الزيت والزيتون من حبات العيون.

الأفلام الفلسطينية في كارفان السينما العربية الأوروبية

بقلم: زياد جيوسي

في الفترة الواقعة ما بين ١٧ و٢٥ آب للعام ٢٠٠٨، وفي مدينة عمّان الأردنية، افتتح مهرجان كارفان السينما العربية الأوروبية، وكان للسينما الفلسطينية حضورها من خلال فيلمين، هما «ظل الغياب» وفيلم «خمس دقائق عن بيتي»، ومن خلال فيلم سويسري فلسطيني مشترك، وقد كان لي الشرف أن أدعى للمهرجان وأن أقدم فكرة عن السينما الفلسطينية، إضافة للتعريف بالأفلام المعروضة، وفيما يلي تعريف مقتضب لهذه الأفلام.

١- «ظل الغياب» للمخرج الفلسطيني نصري حجاج:

الفلسطيني كان وما زال دوماً مشروع شهيد، لا يواجه المشكلة في استشهاده، فهو قدر مرسوم، لكن السؤال الذي ألح على روحي وأنا أحضر العرض الأول لهذا الفيلم، في مسرح وسينماتيك القصبة في رام الله، العاصمة المؤقتة لدولة الحلم فلسطين، هو ... لو استشهدت برصاصة احتلالية أو رصاصة شقيقة أو رصاصة منفلتة، أين سأدفن، وهل سأجد مكانا أدفن فيه بكرامة؟

هذه هي قصة «ظل الغياب» للمخرج الفلسطيني نصري حجاج المشتت بين مخيمات اللجوء وبين المنافي والشتات، يبحث فيه قصة موت الفلسطيني في أصقاع الدنيا، في الوطن والشتات، في الغربة وفي ظل اللجوء والنفي والمنفى.

يأخذنا نصري حجاج في أصقاع الدنيا، فناجي العلي يرقد في لندن، وأبو عمار يرقد في رام الله، وأبو جهاد الوزير يرقد في دمشق، وأبو إياد يرقد في تونس، وآلاف يرقدون في مقابر مجهولة، لم يعرف ذووهم أين هم وأين دفنوا.

كل إنسان له وطن من حقه أن يدفن في ترابه، بصرف النظر عن مكان وفاته، إلا الفلسطيني فهو لا يمتلك هذا الحق، لذا لم يدفن الرئيس ياسر عرفات في القدس، وبقي ناجي العلي مغترباً حتى في قبره، ولم يتح لأبي جهاد أن يرى أرضه حتى بعد الاستشهاد، «فالفلسطيني يظل لاجئاً حياً وميتاً (...) طالما تمنعه الإجراءات الإسرائيلية حتى من تشييد قبر فوق أرض الوطن»، فقوانين إسرائيل تمنع دفن غير اليهودي في أرض فلسطين، فهي تعتبرها حكراً على اليهود، وعد الرب، ولا تريد أن ترى في كذبتها الكبيرة التي أسمتها أرض إسرائيل، بشراً من غير اليهود ميتاً كان أو حياً.

هي قصة الفلسطيني بعد الموت من خلال التجوال بين قبور الفلسطينيين في بقاع العالم، وهي الحلم بالكرامة المنشودة للفلسطيني حتى لو كان ميتاً، فلنشاهد معا «ظل الغياب» وتشرد الفلسطيني ميتاً بعد تشرده حياً.

٢- «رنات العيدان - عائلة كاميليا جبران»

كل فلسطيني يشكل بحد ذاته حكاية، وكل مجموعة من الفلسطينيين يشكلون بحكاياتهم رواية، والغربة والاغتراب هي قصة الفلسطيني سواء تمكن من البقاء في وطنه، أو أجبر أن يغادره أو اقتلع منه، فهم الفلسطيني كان ولم يزل البحث عن الوطن.

رنات العيدان فيلم سويسري فلسطيني من إخراج آن ماري هالر يروي هذه الحكاية، حكاية الفلسطيني والغربة والبحث عن الوطن والهوية، حكاية الزعتر والصُبار وشجرة الزيتون الرومية، متخذة من عائلة كاميليا جبران أنموذجاً للحديث، فإلياس الأب صانع آلات العود ذات العزف الشجي، وصانع البزق والقانون، يسكب روحه في فنه، فالفن والرقص على الألم وخلق الحياة من قلب الموت، هو ديدن الفلسطيني أينما وجد، فكان الفن وسيلة للمقاومة في أسرة إلياس جبران، الأم التي تمتلك صوتاً شجياً، ولكنها لا تخرج عن إطار البيت في الغناء، وكاميليا الطفلة التي نمت وشبّت بصوت ساحر، فسخرت صوتها للبحث عن هويتها في أنحاء العالم، فكانت أول طفلة يسمح لها أهلها بالغناء في ظل مجتمع محافظ، والأخ خالد جبران الفنان والموسيقار الذي جعل من الفن رسالة وسلاحاً، فيشعر في القدس الغربية بكم الاضطهاد، ولكنه يرفض الغربة لأنه في وطنه، وإن هجرت أسرته من قريته وفرض عليه جوازِ السفر الإسرائيلي، وأن يرى بعينيه كلما جال في الشارع علم الاحتلال بدلاً من العلم الوطني، والشقيق الأصغر الذي أبدع بعد ابتعاد بالعزف على البزق، ويصر على أن يكمل طريق والده في ورشة الصيانة والتصنيع، فاستمرارية الورشة بعض من استمرارية ذاكرة وطن.

فنحن في الإطار الشامل لرنات العيدان نجوس الحكاية والرواية، أسطورة طائر الفينيق الذي يصر على أن ينهض من قلب الرماد، يحترق وينفضِ رماده وينهض من جديد، ليرسم أسطورة المقاومة، الشعب الذي يصر على ألاّ يموت أبداً، لا يترك الأمل يهرب من روحه، يرى الصباح القادم الأجمل في أجيال تمارس المقاومة والتشبث بالأرض بكافة الأشكال والصور، والفن والموسيقى بعض من هذه الوسائل، فالشعوب الحية هي التي تبدع بأشكال الفنون، فالتاريخ ما زال يعلمنا حضارة اليونان ومصر، لكن عسكريتاريا إسبارطة تمر علينا سراعاً بأسطر قليلة في سِفر التاريخ.

رنات العيدان نِداء كاميليا جبران بصوتها وبحنجرة شعبها: أيها العابرون مع الرياح والزورق المنسي عند النهر في الصباح، سور من المنفى رماه الليل في دربي ولاح، يا أيها الليل الذي نسي النهار وخاف، خذني إلى بلدي ...

٣- «خمس دقائق عن بيتي»

الذاكرة الحية كانت ولم تزل أحد أساليب المقاومة في وجه الاحتلال، والاحتلال الإسرائيلي عمل دوما على شطب ذاكرة الشعب الفلسطيني، من خلال محاولات شطب وطمس معالم هذه الذاكرة، فقد كان العدو يظن أنه بوفاة الجيل الكبير الذي عايش النكبة، ونمو جيل لم يعرف وطنه، هو نهاية القضية، ولم يدر في ذهن المغتصب أن الفلسطيني يورث الذاكرة جيلاً اثر جيل.

ناهد عواد ما بين ألم وأسى وعدسة، رسمت ذاكرة لأجيال لم تعرف مطار القدس، بما فيها ناهد عواد نفسها، وهي التي ولدت بعد الاحتلال بخمس سنوات، فمشاهد هذا الفيلم ستتدفق أمامنا عبر اثنين وخمسين دقيقة، ففي هذا الفيلم الوثائقي الطويل نسبياً مقارنة بالأفلام التي اعتدنا أن نراها، كانت ناهد تتألق بالتصوير وربط الحدث، استحضار الذاكرة وبث الحياة فيها بعد أن ظن العدو أنه قد تمكن من شطبها.

اعتمدت المخرجة أسلوب يبتعد عن السرد، أسلوب استدعاء الذاكرة من شخوص عرفوا المطار، فكانت هناك عدة شخصيات رئيسة في الفيلم تستدعي ذاكرتها وتتحدث عن هذه الذكريات، بين ألم الواقع وبين لمحات الفرح في العيون، وهي تستعيد لحظات جميلة، ما أضفى على الفيلم بعضاً من الفكاهة في أحاديث من تحدثوا أحياناً، وأثارت الدموع في المآقي حيناً آخر.

وفقت ناهد بالخلفية الموسيقية للفيلم، فقد وضعت مع الصور موسيقى كلاسيكية قديمة، ومع المشاهد الحديثة موسيقى حديثة، منها عزف هادئ على البزق للفنانة أمل بكر، أجادت استحضار الذاكرة وربطها بالحاضر، تمكنت بمهارة من الانتقال بين مشاهد مأخوذة عن صور فوتوغرافية، ومشاهد حية معاصرة، وأحاديث شخوص الفيلم والجمهور العابر، فلم ألمس أي قطع بين المشاهد، التصوير كان يلتقط المشاهد بجمال ودقة، ورغم ورود بعض المشاهد غير الواضحة تماماً، فهي لم تؤثر على الفيلم، كونها ملتقطة من مسافات بعيدة عن المطار، فيستحيل دخول المطار إلا للكلاب والقطط السوداء ودوريات الاحتلال. فهل سيأتي اليوم الذي نحلق به من مطارنا المسلوب، أم أن العمر سيمضي بنا ونحن ننتظر هبوط النوارس التي تحمل الأحبة العائدين لوطن حر ومطار لنا، وأرض عطشى تنتظر من يروي عطشها، ياسمينات وفيء زيتون.

مها نصار ... قصة نضال لا ينته

مهند عبد الحميد

جاءوا في وداعها من أماكن مختلفة ومن مشارب وانتماءات متعددة، شبان وشابات رجال ونساء متوحدون في لحظة فقد حزينة. فتاة متجهة تحمل طفلها تتقدم المسيرة تبحث عن مكان لها بين حملة الأعلام واليافطات، دموع تذرف أو تتسلل من العيون، مسلمون ومسيحيون متوحدون بلا حواجز، أعادتهم مها نصار في رحيلها المبكر لأيام زمان الحلوة وما انطوت عليه من قيم النضال المشترك والإخاء والمحبة بين معتنقي الديانتين للشعب الواحد والوطن الواحد، هكذا كانت فلسطين عبر التاريخ ولن تكون غير ذلك. وجاءت مشاركة ليئا تسيمل وزوجها المنتميين للديانة اليهودية وما يمثلانه من مواقف ضد الاحتلال والكولونيالية والتمييز والقمع الإسرائيلي لتكمل اللوحة الجميلة التي تشكلت في تلك اللحظات الحزينة.

رام الله تودع ابنتها كما يليق بمناضلة انتصرت لحرية وطنها وإنسانه، محمولة على الأكف طاف بها جمهور المشيعين الحاشد شوارع المدينة التي أحبت وقاومت المحتلين فيها، كأن رفيقات ورفاق وأصدقاء مها يرغبون إطالة البقاء معها مزيدا من الوقت يستعرضون المآثر والعطاء والدور.

بين الصمت المهيب وهتافات الشبان "غير المبدعة" تخللت المسيرة حوارات خافتة. قلت مخاطبا صديقي في الحشد: عندما كنت أستعد للعودة إلى الوطن اغتنمت فرصة سؤال الأصدقاء عن الأشخاص المتقدمين الذين يركن للعمل معهم في الوطن، كان اسم مها نصار في المقدمة كنموذج للتقدم والديمقراطية والتنوير والتعدد هكذا جاء تقييمها لدى أكثر من طرف. وقبل ان نكمل الكلمات التقينا بصديقة متشحة بالاسود يملؤها الحزن، كانت هي من رشح مها نصار وقدمتها كنموذج. قلت لها أتذكرين لقاء عمان ونصحيتك لي بالتعرف على المناضلة التقدمية مها نصار؟ أومأت مؤيدة وقالت: انظر حواليك ستجد الترجمة الفعلية لما قلته لك بالكلمات الحشد المختلط نساء رجالا يجمعهم فكر تحرري تقدمي، التعدد السياسي الديمقراطي، المشاعر الصادقة التي تشاهدها في كل العيون من حولك.

تابع الصديق تداعيات ذاكرته وسط حشد المشيعين فقال: مها نصار حقا كانت رائدة العمل التطوعي في رام الله. "فتاة مُنعَمة ترتدي الجينز (وتَجْبِلْ) الباطون تطوعا"، كانت في مقدمة المتطوعين، قاطفة زَيتون، زارِعة أشجار، يدفعها إلى ذلك فكرها التقدمي وأصالتها الوطنية. وأضاف، يكفي القول ان مها من السياسيين القلائل الذين واصلوا دراستهم في مجالات علمية "الفيزياء" وتخرجت بتفوق، خلافا لاكثرية الطلبة السياسيين الذين حولوا دراستهم لمواد أدبية بسبب انشغالاتهم الوطنية. كانت تقول لنا: يجب أن نقدم نموذجا للمناضل الذي يجمع بين العلم والنضال، مجتمعنا بحاجة الى تخصصات علمية كالفيزيا والرياضيات، فلماذا لا نلبي حاجته؟ انها عملية نضالية مترابطة.

الحرية الشخصية هي التي تؤهل لوعي التحرر الوطني، هكذا كانت مها نصار التي بادرت الى انتزاع حريتها الشخصية، تمردت أولا على القيم المتأخرة، وموروث العادات المكبل لتطور المجتمع والفرد، وسطوة المجتمع الذكوري، وعندما أصبحت حرة أخذت مكانها المؤثر والمميز في النضال. مها وكل المناضلات اللواتي ابتدأن بانتزاع حريتهن الشخصية الفردية أكملن النضال وتغلبن على الصعوبات ولم تثنهن التحولات الرجعية عن مواصلة درب الحرية. فالحرية يصنعها الاحرار والديمقراطية يصنعها ديمقراطيون والتقدم يصنعه تقدميون.

القيم النضالية التحررية التي مثلتها مها بمكنتها من اختراق الحواجز وهي على قيد الحياة، وحفَّزت الكثيرين الوفاء لها ولقيمها وهي راحلة، مها نصار ..قصة نضال متجدد لا ينته.

دروب المعرفة

«سرير الغريبة»: من كتب الحب الجميلة جداً..

«المرأة كائن بشري وليست وسيلة للتعبير عن أشياء أخرى. الوردة كائن جمالي من دون أن يرمز الى جرح أو دم. هذه محاولة لتطبيع علاقتي مع اللغة أو الكلمات والأشياء يقول محمود درويش، ولتطبيع علاقتي أيضاً بالنظر الى الفلسطيني ككائن بشري أولاً، قبل أن يكون قضية. فالهوية الإنسانية للفلسطيني سابقة للهوية الوطنية. صحيح أننا في صراع طويل يستلزم أن يقوم الشاعر خلاله بدور في بلورة الهوية الثقافية وفي حماية الروح من الانكسار، ولكن يجب ألا يلغي هذا الأمر حقنا الإنساني في التأمل في طبيعتنا البشرية. فالفلسطيني إنسان يحب ويكره ويتمتع بمنظر الربيع ويتزوج... إذاً المرأة تحمل معاني أخرى غير الأرض. جميل أن تكون المرأة وعاء للوجود كله. ولكن يجب أن تكون لها شخصيتها كامرأة. عندما تعرضت في ديواني «سرير الغريبة» للنقد واتهمت بالتخلي عن ارتباطي بالقضية، قلت ان هذا تعميق للتجربة. ثم إن شعر الحب يمثل البعد الذاتي من أبعاد المقاومة الثقافية، فأن نكون قادرين على الكتابة عن الحب والوجود والموت والماوراء، فهذا يعمق من قيمتنا الوطنية وهويتنا. نحن لسنا خطاباً، نحن لسنا بياناً. وكما قلت أكثر من مرة وأكرر: الفلسطيني ليس مهنة بل كائن بشري يناضل ويدافع عن أرضه وحقه.

وأضاف «أتمنى أن أكون شاعر حب أو أتمنى أن تسمح لي ظروفي التاريخية في أن أكون شاعر حب، لأن شعر الحب هو أجمل ما يمكن أن يكتب من شعر. والحب لا ينتهي. تلك هي فلسفة المرأة والحب عند محمود درويش.

التلصص على بيوت الفنانين

معظم الفنانين يفزعهم الترتيب. لأن النظامَ قانونٌ، والفنُّ ضدٌّ لكلِّ قانون، وهادمٌ لكل نَسَق، وإلا كان تقليداً ونقلاً واتباعاً. التلصصُ على بيوت الفنانين والشعراء والفلاسفة أمرٌ مثير. كيف يا ترى كانت بيوتُ أفذاذ مثل بيتهوفن، ماركس، المتنبي، أوسكار وايلد، سلفادور دالي، «ليت للقرّاء عيناً» لنتلصص عليهم عبر نوافذهم المُسْدلة. لَكَمْ هو محظوظٌ هذا الذي قُدِّر له أن يدخل بيتيْ اثنين من قاماتنا الفكرية الكبرى. خصمان كبيران وعظيمان. طه حسين، والعقّاد. بيت طه حسين في الزمالك جعلته الزوجةُ الفرنسية خافتَ الضوء يسبحُ في الظلال، مغلقَ النوافذ، شديدَ الترتيب، كلُ شيء في مكانه، بما يوحي أن كثيرين يأهلون هذا المكان: أحذُهم وضعَ الورودَ في الفازة، وآخرُ أسدل الستائر، وثالثٌ بسطَ السجاجيد في موقعها بدقة. فيما بيتُ العقاد في مصر الجديدة، على نقيض من كلِّ ذلك، يرفلُ في الفوضى. نوافذُ مشرعةٌ كأنه مهجور. لا شيء في محلّه سوىَ الكتب. حتى أفكار سارتر كانت ملقاةً بإهمال على السرير. كلا البيتين نقيضٌ لصاحبه. بيتُ طه حسين ذو النوافذ المغلقة لا يشبه صاحبَه ذا الأفق المنفتح على كلِّ تيارات التجديد. الترتيبُ المنمّقُ يناقضُ عقلَ رجلٍ هشَّمَ كلَّ قالب ودقّقَ كلَّ مُسلّمة. ومَنْ في جسارته حين ألقى في وجه العالم كتاباً مثل «في الشّعر الجاهليّ» وفي المقابل، فوضى بيت العقاد لا تشبه عقلَه المنظَّم الرافضَ التجديدَ، التوّاقَ للأطر والثوابت الأصولية الرصينة. فاطمة ناعوت

انثيال الذاكرة- مذكرات فتحي البس

كتب فتحي البس حكاية جيل الحلم والخيبة، الذي رسم وجه بيروت، قبل ان تذهب المدينة الى قدرها المأساوي.في كتابه «انثيال الذاكرة»، (دار الشروق، عمان ٢٠٠٨) اعادنا في مذكراته، إلى أفق البداية وأحلامها وأوهامها.

أخذتنا ذاكرة فتحي البس الى أماكن لم نزرها من قبل، وكشفت لنا مناطق في الأعماق الإنسانية لا نعرفها. رأينا كيف يصنع الفتية الحب وسط الخراب، وكيف يقاتلون من أجل لقمة مغمسة بالأسى، وكيف يفرحون بالحياة التي ضنت عليهم بكل شيء. كتاب فتحي البس جزء من حكاية بيروت، في زمن تألقها الكبير وتحولها سؤالا ثقافيا وفكريا وسياسيا في الضمير العربي. بيروت هذا الكتاب تملك بابين: الجامعة وفلسطين. والواقع أن هذين البابين يندغمان في سؤال واحد اسمه الرد على هزيمة حزيران بالثورة والتغيير الجذري. وإطارا الذاكرة هما الجامعة الأميركية و«الكتيبة الطلابية»، وهما في الواقع إطاراً واحداً. فحيث يكون الطلاب تكون روح المجتمع ويتشكل مستقبله. التجربة التي يتحدث عنها الكتاب هي آخر التماعة في الحركة الطالبية في بيروت، وآخر معركة ثقافية تكون الجامعة الأميركية مسرحا لها. يروي الكتاب حكاية المزج بين النضال الطالبي، والنضال الوطني. طلبة يتحولون فدائيين، وفدائيون يناقشون التجارب الثورية في العالم. اليسار بأجنحته المختلفة يتصدر المشهد برمته، وحركة «فتح» تصير ارض الفعل ورمزه في آن معاً.

تجربة «الكتيبة الطلابية»، تحتل الحيز الأكبر من الكتاب، وتأخذنا الى رفاقنا واصدقائنا الذين سقطوا.

ومثلما تحطمت الحركة الطلابية في الجامعة الأميركية، واجهت «الكتيبة الطلابية» المأزق الايديولوجي الذي صنعته الحرب الأهلية، وتنامى مع التيارات الأصولية التي قدمت نفسها بديلا من الماركسية مع الثورة الإيرانية. لم يشفع للكتيبة تحولها الى افضل الكتائب المقاتلة في الجنوب، واتخاذها إسما جديدا هو «كتيبة الجرمق»، في اخراجها من المأزق. ثم جاء الإجتياح الإسرائيلي وما تلاه، فانحلّ هذا التشكيل العسكري– السياسي، وتفرق الرفاق.

فضل كتاب فتحي البس، أنه يفتح باب مناقشة التجربة، ودلالات مأزقها الايديولوجي، وهي مناقشة لم تبدأ بعد، لأننا للأسف لا نؤرخ تجاربنا، تاركين للزمن مهمة محو صفحة ناصعة وغنية من تجربة بيروت مع أحلام التغيير وكوابيسه.

منع الجنسية عن متعددي الزوجات في هولندا

طالبت وزيرة الدولة في وزارة العدل الهولندية البرلمان بالموافقة على قانون يمنع منح الجنسية للرجال المتزوجين بأكثر من امرأة، واعتبرت «نباهت البيرق» أن تعدد الزوجات أمر غير مقبول في مجتمعها وهو أمر يجرمه القانون. وأكدت الوزيرة التركية الأصل أمام البرلمان، أن تعدد الزوجات يتعارض مع شروط المواطنة التي تبني عليها كل أركان سياسة إدماج المهاجرين، وعبرت عن أملها أن يدفع هذا الإجراء إلى التفكير ملياً قبل أن يُقدم المهاجرون، الذين تسمح قوانين بلدانهم الأصلية بتعدد الزوجات، على توسيع حياتهم الزوجية بأكثر من امرأة واحدة. وكان فريق الحزب الديمقراطي المسيحي طالب وزارة العدل بتقديم توضيحات بشأن ١٣٧ حالة تعدد زوجات سُجلت في العاصمة أمستردام وحدها، منها حالات ٣١ رجلاً تجنسوا رغم أن فيهم من في ذمته أكثر من امرأتين.

إضاءات

واقع المرأة في إطار الموروثات الثقافية السائدة

أرست الموروثات الثقافية السائدة صورة نمطية عن المرأة شكلها العديد من المتغيرات، من بينها أساليب التنشئة الاجتماعية، ودعمتها الأساليب الاتصالية، وأكدها أصحاب الفكر الرجعي في المجتمع.

ويلعب أسلوب التنشئة الأسرية دوراً كبيراً، وهو الذي يتولاه بشكل أساسي الآباء الذين يرثون عادات وتقاليد مجتمعاتهم التي يعيشون فيها، مشكلين بذلك ضغوطاً حضارية يمارسونها على أبنائهم عن طريق تدعيم اتجاهات بعينها مقبولة في إطار المجتمع الذي يعيشون فيه، مع استعباد أخرى ليس لها نفس الدرجة من التقبل والشيوع داخل تلك المجتمعات، من هنا تتضح أهمية دور الوالدين في تشكيل شخصية الأبناء باعتبارهم يملكون إمكانيات أكثر تأثيراً على النمو النفسي والاجتماعي للأبناء، فهم من ناحية الموصلون الأساسيون للمفاهيم الإجتماعية، ومن ناحية أخرى المهيمنون على تنشئة الأبناء بشكل مؤثر وفعال.

ولأننا نعيش في حضارة تعطي الأولوية للطفل الذكر وتخصه بمميزات لاتحصل عليها الطفلة الأنثى، لذا ينتقل الاتجاه الى معاملة الفتاة عبر أفراد الأسرة، وبالتالي الى بقية أفراد المجتمع، فتعامل على أنها النوع الأضعف والأقل قدرة والأدنى مكانة، ويسود ذلك المنحى الفكري لدى العامة..وهنا تشيع فكرة النقص الأنثوي التي ترجع الفروق بين الجنسين الى عوامل وراثية..

ذلك المنحى الذي توصلت الوسائل الموضوعية في القياس إلى عدم صحته، وإلى إرجاعه «إن وجد» إلى عوامل التنشئة الاجتماعية التي تدعم الفروق بين الجنسين منذ المراحل العمرية المبكرة.

ويشير العديد من الدراسات إلى أن قدرات الفتاة تهدر مع الزمن بعد مرحلة البلوغ، فالمتتبع لبحوث القدرات العقلية للفتيات منذ فجر حياتهن حتى مرحلة الرشد! يلاحظ عدم وجود فروق جوهرية بينهن وبين الذكور، بل يتفوقن عليهم في مرحلة ما قبل المدرسة، وفي سني الدراسة الأولى في بعض جوانب الذكاء، بل وفي القدرات اللفظية، فيبدأن الكلام واستخدام جمل أكثر طولاً، ويتحدثن بقدر أكبر من الطلاقة، وأيضاً في إدراك السلوك الاجتماعي المناسب.

بل يتفوقن عليهم في بعض القدرات الرياضية في مرحلة التعليم الأساسي، ولكن بارتفاع العمر، ومع الوصول الى مرحلة الرشد،يقل هذا التفوق.. فيتساوى الجنسان أو يكادان ثم يبدأ الرجال في التفوق في الحياة العملية، في حين تحرم المرأة من التشجيع الكافي على التفوق والتنافس، ويتم التأكيد على دورها الأنثوي التقليدي لكي تصبح قادرة على القيام بأدوارها داخل البيت كزوجة وأم. أما الآمال العلمية والتطلعات العملية فتترك للرجال، ومن هنا يتشكل منذ البداية الدوران المختلفان اللذان فرضهما المجتمع على كل من الرجل والمرأة.

وتسهم بعض العوامل الأخرى في تدعيم ذلك التصور السائد، من بينها وسائل الإعلام والوسائط الثقافية المختلفة، التي يدعم جانباً كبيراً من مادتها أدوار الجنسين، فتبرز قضايا المرأة الهامشية دون قضاياها المهمة أو القومية، وكأنها مخلوق معزول عن المجتمع لا يتأثر بمشكلاته العامة أو تشغله قضاياه الملحة، أو تتفاعل مع تغيراته السياسية أو الاجتماعية أو الاقتصادية فقضايا مثل الأدوار المستحدثة التي يمكن أن تقوم بها من أجل تنمية مجتمعها أو حل مشكلاته داخل العمل وخارجه، أو مشكلات المهنة وصراع الدور، والتوفيق بين أدوارها المختلفة.. كذلك الموضوعات المتعلقة بحقوقها الإنسانية والشرعية، وما يكفله لها القانون من حقوق في مجال الأحوال الشخصية، أو قضية تحررها ومساواتها بالرجل في الحقوق والواجبات، كلها قضايا نادراً ماتطرح، وإن طرحت فمن خلال إطار فكري يقلل من مكانتها ومن قيمة الأدوار التي يمكن أن تقوم بها في مجال تنمية مجتمعها.

ومن خلال التنشئة الاجتماعية، وماتقدمه وسائل الاتصال والوسائط الثقافية المختلفة،ومساعدة أصحاب الأيديولوجية الفكرية التقليدية..يرسم المجتمع للمرأة صورة نمطية يصعب الخروج من أسرها، مستخدماً في ذلك أساليب التدعيم المباشر، كأسلوب القبول الاجتماعي الذي يعمل على إثابة اتساق المرأة مع القالب النمطي السائد، أو أسلوب الاستهجان الاجتماعي الذي يعمل على استنفاد السلوك الذي يتعارض مع الدور المرسوم ويؤكد حصر المرأة في أدوار محددة لاتخرج عنها تتم عادة داخل البيت وليس خارجه.

«عن مقال للدكتورة.ناهد رمزي»

رائدة في دمج الفكر التحرري بالنضال الوطني والاجتماعي

أحد شوارع مدينة القاهرة يحمل اسمها، كذلك هناك مدرسة في ذلك الشارع يحمل اسمها، وكانت صورتها مرسومة بحجم كبير على حائط المدرسة المرتفع بحيث يشاهدها جميع التلاميذ في طابور الصباح. امرأة مصرية تنتمي للنساء المصريات اللواتي صنعن تاريخاً في النضال ضد الاحتلال البريطاني وضد الظلم والطغيان وعانين من ويلات الاحتلال الفرنسي والإنجليزي لمصر سنوات طويلة.

إنها هدى محمد سلطان باشا شعراوي، إبنة رئيس أول مجلس نيابي في مصر، وُلدت بمدينة المنيا عام ١٨٧٩، وتلقت تعليمها في المنزل، فحفظت القرآن الكريم، وتعلمت مبادئ القراءة والكتابة، وتعلمت الفرنسية والتركية، وعندما بلغت الثالثة عشرة تزوجت من علي شعراوي السياسي المعروف، أحد قادة ثورة ١٩١٩.

مشوار هدى بدأ مبكرا مع التمييز المجتمعي والعائلي الذي صدم طفولتها، بدأت الحكاية، حين مرضت الطفلة هدى وأخوها الصغير بالحمّى، كانت تشاهد أفراد العائلة يصبّون جل اهتمامهم على أخيها وهي لا يكترث بها أحد!

هذه الحادثة، وغيرها من حوادث أخرى جعلت هدى تطرح على نفسها ومنذ طفولتها أسئلة كثيرة .. لماذا هو، وليس أنا ؟ تقول هدى : لقد زادتني هذه التجربة المريرة انكماشا على من حولي، فصرت أقضي معظم أوقات فراغي بعد الدروس في حديقتنا مع الحيوانات والأشجار، وكان يخيّل إليّ أنها تفهمني وترثي لحالي»؟

كانت هدى تميل إلى قراءة كل أنواع الكتب، وقد تأثّرت بالأديبة خديجة المغربية وأخذت عنها عادة المطالعة والقراءة والفكرة الأولى عن المرأة الفاضلة التي تستطيع أن تتساوى بالرجل، وتمنّت أن تكون مثلها عندما تكبر. فتحت مكتبة أبيها المتوفى المغلقة وأخذت تقرأ بنهم .. أجادت اللغة الفرنسية، وتعلّمت العزف على آلة البيانو، وكانت شغوفة بالموسيقى.

انشغلت هدى شعراوي بالعمل الاجتماعي، فأسست جمعية لرعاية الأطفال سنة (١٩٠٧)، وطالبت في سنة ١٩٠٨ القائمين على الجامعة المصرية بتخصيص قاعة للمحاضرات النسائية والاجتماعية، فكان لها ما أرادت، وأسهمت في تأسيس «مبرة محمد علي» للأطفال المرضى سنة ١٩٠٩م.

كانت هدى رائدة لأول حركة مساواة في مصر وأول امرأة مصرية تدعو نساء بلدها إلى التحرر والانعتاق سياسيا واجتماعيا. قادت أول مظاهرة للنساء في مصر ضد الإنجليز بعد ثورة زغلول باشا عام ١٩١٩ وضمت هذه المظاهرة ثلاثمائة امرأة من جميع طبقات المجتمع، طالبن باستقلال بلدهن.لكن الجنود الإنجليز قمعوا المظاهرة بالنار فاستشهدت إحدى السيدات وهي (شفيقة محمد)، أول امرأة شهيدة سقطت دفاعا عن الوطن واستقلاله من الاحتلال البريطاني.

في آذار عام ١٩٢٣ أعلنت تأسيس أول إتحاد نسائي لمنظمات المرأة المصرية التي تتكون من مجموعات تتولى أموراً سياسية وطنية واجتماعية، كان هدفها الأساسي تأييد سيدات مصر للدفاع عن حقوقهن في التعليم ودورهن في تصميم قوانين جديدة تحمي حقوقهن وتعطي لهن حرية واستقلالا. دعا الإتحاد النسوي إلى رفع سن الزواج إلى ١٦ عاما للفتاة و١٨ عاما للفتى، وطالبت بوضع قيود أمام الرجل للحيلولة دون الطلاق العبثي، وحاربت تعدد الزوجات الذي ينطوي على إهانة ومذلة للمرأة، وناصرت تعليم المرأة وعملها وحقها في العمل السياسي.

مثلت هدى شعراوي نساء مصر في اكثر من أربعة عشر مؤتمرا دوليا. من أهمها مؤتمر روما عام ١٩٢٣ وباريس عام ١٩٢٦ وامستردام عام ١٩٢٧ وبرلين عام ١٩٢٧ واستنبول عام ١٩٣٥، و كل مؤتمر شاركت فيه كانت تنتزع التأييد لنضال المرأة المصرية كما تقول.

أصبحت هدى من الشخصيات البارزة في تاريخ مصر الحديثة، في عام ١٩٣٥ أصبحت رئيسة للجنة اتحاد المرأة العربية و في عام ١٩٣٥أصبحت نائبة رئيسة لجنة الاتحاد العالمي للمرأة وظلت في هذا المنصب حتى وفاتها.

عام ١٩٢١ بادرت مجموعة نساء مصريّات إلى خلع الحجاب عن رؤسهن ورميه على الأرض، أثناء استقبال سعد زغلول زعيم مصر وهو عائد من المنفى، كانت السيّدة هدى الشعراوي في مقدمتهن وهي أوّل سيّدة مصرية ترفع عن رأسها الحجاب، ومن يومها رفعت نساء كثيرات الحجاب وتحولت هذه العملية إلى ظاهرة انتشرت في أرجاء مصر وانتقلت عدواها الى بلدان عربية.

وعندما صدر كتاب قاسم أمين (تحرير المرأة) الذي حفّز الأذهان إلى وجوب خلق نهضة عامّة من خلال تثقيف المرأة وتحريرها. كان هذا الكتاب حجر الأساس الأوّل في بناء قاعدة النهضة النسوية المصرية ـ التي واجهتها القوى المتخلّفة بالاستنكار والرفض.

أما بالنسبة للسيّدة هدى شعراوي فقد كانت أفكار قاسم أمين وكتابه .. شرارة أضاءت شعلة التحرر والنضال. وصلت أفكار أمين إلى روح هدى المتيقّظة لاستقبال الفكر التحرري الذي أطلقه قاسم أمين والإمام الشيخ محمّد عبده وسعد زغلول ومصطفى كامل وغيرهم.

ناصرت هدى شعراوي القضية الفلسطينية فنظمت أول مؤتمر نسائي للدفاع عن فلسطين عام ١٩٣٨، وبعد صدور قرار التقسيم سنة ١٩٤٧ اعتبرت ذلك ظلما شديدا للشعب الفلسطيني، ودعت النساء إلى تنظيم جهودهن لجمع المال والكساء وقيدت أسماء المتطوعات للعمل في التمريض والإسعاف.

وعندما صدرت أول جريدة لها باسم «المصرية» عام ١٩٣٧ أيدت فيها الشعب الفلسطيني ومقاومته للمشروع الصهيوني الكولونيالي ونشرت الكثير من المقالات عن نضال الشعب الفلسطيني.

وفي عام ١٩٠٨ دعت هدى شعراوي الكاتبة الفرنسية «مارجرت كاليمون» إلى مصر لتلقي محاضرة للنساء في جامعة القاهرة وبسبب نجاح المحاضرة والاهتمام الشديد من جهة الحاضرات قررت إدارة الجامعة أن تخصص إحدى قاعاتها للقاءات ثقافية مشابهة. واعتبرت هدى شعراوي النحات المشهور محمود مختار من أعظم فناني عصره بل كانت تسمي فنه إمتداداً لعصر الفن الفرعوني. لذلك قررت أن تؤسس «اتحاد أصدقاء محمود مختار» لتشجيع الفنانين وتنظيم معارض ومسابقات لهم وخصوصا للمبتدئين ما بينهم وكانت تدعم لفترة ما «جائزة مختار».

في عام ١٩١٤ أسست هدى شعراوي «اتحاد النساء للتطور الأدبي» وجمعية «المرأة الجديدة» وكان الهدف من هذه المؤسسات فتح الأبواب أمام المرأة المصرية قي مجال الثقافة والتعبير الفني وممارسة كل أنواع اهتماماتهن.

انضم إلى النوادي والمؤسسات عدد كبير جدا من نساء مصر لكن الحرب العالمية الأولى أوقفت نشاط الاتحادات. فقررت هدى شعراوي أن لا تنسحب من نشاطها فتوجهت إلى السياسة، لذلك بدأت تحول معظم نشاطات مؤسستها إلى أهداف سياسية وإلى نشر الوعي السياسي بين نساء مصر. ثم بدأت في توسيع نشاطاتها في فروع الجمعية وقامت بتأسيس جمعيات خيرية في المناطق الشعبية.

المراقب لتطوّر حياة ووضع المرأة العربية والمصرية يشعر كم هو كبير وجوهري الفارق بين الحيوية التي كانت تسود حركات تحرير المرأة في النصف الأوّل من القرن الماضي والحركات النسائية الحالية التي ابتعدت عن جوهر الحرية والعدالة، وتراجعت الى حد كبير عن رسالتها التحررية.

كتاب: عاشق الشيطان

«لا خيار أمام المُضطهَد والمظلوم إلا أن يقاتل»

كتبت د.سوسن مروّة

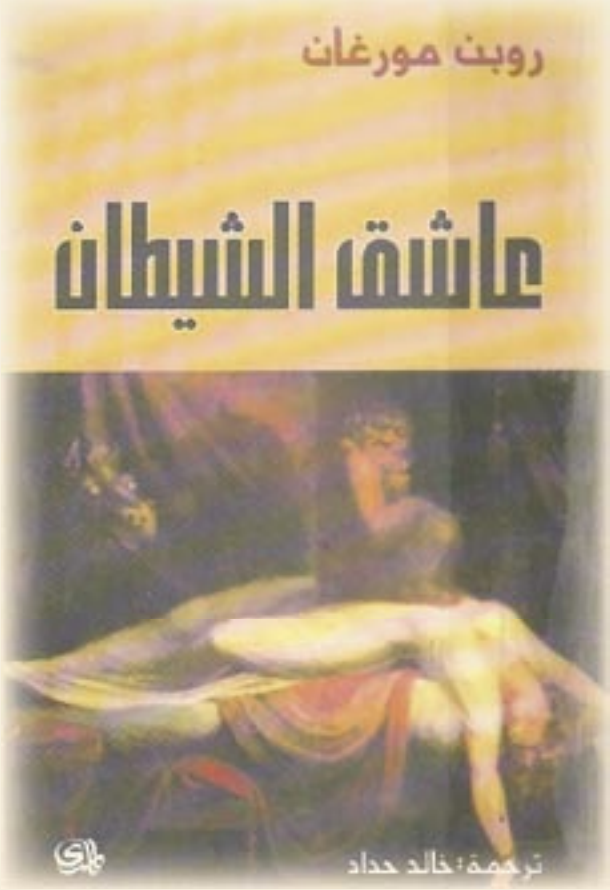

تأليف:روبن مورغان
ترجمة:خالد حداد
منشورات:دار المدى، دمشق ١٩٩٠

يرصد «عاشق الشيطان» الجذور السياسية، الدينية والسيكولوجية للإرهاب. بكلمات قوية، مفعمة بالعاطفة، تتفحّص كيفية وأسباب ارتباط الإرهاب بالمجتمعات الأبوية؛ لماذا يشكّل الرجال ما يقارب الـ٨٠ ٪ من الإرهابيين و لماذا تمارس النساء الإرهاب «الرمزي»؟

وتتعرّض مؤلّفة «عاشق الشيطان» لموضوعة الإرهاب من منظور نسوي راديكالي، إذ تحاول تقديم عرض تحليليٍّ، استفزازيٍّ ومثير للكثير من الجدل، للبّ العلاقة بين ازدراء مجتمع ما للمرأة ونزوعه لإضفاء الطابع الشهواني على العنف والصبغة الرومانسية عَلى الموت. معتبرةً أن الإرهاب ناشىء من توكيد المجتمعات الذكورية على السلطة والهيمنة والعنف. وفي غمرة تساؤلها حول ماهية «الإرهابي» تقرّ أنه ما من محاولة جديّة لإيجاد تعريف في غياب سياق اجتماعي، أو سياسي أو وطني أو ثقافي كما لا يمكن أن يحدث في غياب سياق تاريخي وأخلاقي. لكننا، وفي غمرة تتبّعنا لـ«عاشق الشيطان»، لا نعثر على تعريف محدد للإرهابي ونجد أن العديد من السياسيين والموظفين العسكريين والشرطة ورجال الأعمال (وبخاصة منتجي السلاح) والعلماء والتقنيين (وبخاصة مصمّمي السلاح) بالإضافة إلى المختطِفين ومقاتلي حروب العصابات في المدن–كلّ هؤلاء نجدهم يندرجون، حسب مورغان، تحت مفهوم الإرهابي. وإذ تتحدث عن بنية هرمية حقيقية للقوة في نطاق الدولة، وعن دمقرطة العنف وشرعنته، تربط مورغان بين إضفاء الصفة الشرعية السياسية وإضفاء الصفة الشرعية العائلية مقتبسةً عن ميشيل فوكو قوله:«.. كي تعمل الدولة بالطريقة التي تقوم بها، يجب أن توجد، بين الذكر والأنثى أو بين البالغ والطفل، علاقات سيطرة محدّدة تماماً» كما تقوّل جازمة: «إن الإرهاب يعزز الدولة ولكي ينجح الإرهاب يجب أن يتبعه فقدان الذاكرة».

وفي سياق الحديث عن الإرهاب لا يمكن إغفال الجانب الاقتصادي حيث يُعتبر تجار الأسلحة والكومبيوتر والذخائر وصانعو المواد الكيميائية رابحين أساسيين من صناعة الموت. ولئن كانت هناك حاجة لدورة الأرباح واستمرار صناعة وتجارة الموت فإن هذا يتطلّب تجميل الإرهاب من خلال الترويج للأزياء الخاصة بالقتال والمجلات التي تربط بين العنف والجنس. كما أن صناعة السينما تقوم بدورها إذ تقدّم هوليود لنا البطل الإرهابي الجذاب والشهواني كما المرأة المتماهية مع الرجل بصفاته العدوانية.

في هذا الكتاب تراجع الكاتبة الأدب والمصطلحات الفنية الثقافية للإرهاب وتقتفي أثر تجسيد الرعب في الخرافة والأسطورة، عبر العالم وعبر الزمان. وفي الفصل الثالث تبحث في الدين والفلسفة وعلم الجمال من حيث هي الوسيلة التي تكيّفنا على أساسها لرؤية الوجود كحالة من الخوف أو كحالة فقدان له.

وفي سياق حديثها عن ممارسات سلطات الاحتلال الإسرائيلي تلاحظ أن «هدف الإرهاب ليس القتل أو تدمير الملكية. إنه يهدف إلى تحطيم روح المعارضة». لكنها تعتقد في المقابل أن حركات التحرر الوطنية ـ مهما تكن عادلة، ومهما يكن عدد النساء المستغرقات فيها ـ كانت بالتأكيد بقيادة الذكور ولغايات ذكورية وبتكتيكات ذكورية وتحديدات ذكورية للسلطة.

ما من حكاية كاملة تسردها مورغان في عاشق الشيطان. هي مجموعة من الحكايات المطعّمة بالصمت الاختياري عما ينطوي خلف تلك القصص. ومن هنا تبدو وكأنها تنظر للإرهاب من منظور له الصفة الإنسانية إلا أنه منظور يبدو غير ملتزم بصيغة معينة للتعامل معه وحتى غير ملتزم بنظرية فلسفية أو طبقية محددة ينبني على أساسها فعلٌ محدد. وإذ تعدد سلسلة التعريفات التي يمكن أن تتناغم مع كلمة «إرهابي» من المقاتل، الشجاع، الفارس، المناضل إلى الجندي، الشرير، البطل. فإنها تقرّ أن التعريفات تعتمد في النهاية على المنظور الأيديولوجي لمن يتبنّى أحد هذه التعريفات.

في الفصل السابع، تحت عنوان:الحنين إلى الكارثة:رحلة شخصية تسرد تفاصيل مروّعة لتورّطها هي بشكل خاص مع مجموعات سرية مسلّحة في الستينيات. كما تكتب عن الشهور التي قضتها في مخيمات اللاجئين الفلسطينيين في الضفة الغربية وقطاع غزة وفي الأردن ولبنان حيث التقت بالفتيات والنساء الفلسطينيات وتعرّفت الى نساء غير متعلّمات وأخريات متعلّمات وناشطات في الحركة النسائية والسياسية كما قابلت من كنّ فدائيات في السابق. وتؤكد أن تركيزها في هذه الرحلة كان على النساء في مخيمات اللاجئين، اللواتي يعانين من النشاط الجنسي للإرهاب لكنهن يقاومن ويحاولن تحدي بنية السلطة في الأسرة.

لكن مورغان وفي ختام كتابها هذا، تقترح مخرجاً من إشكالية الإرهاب يبدو انفعالياً وخطابياً أكثر منه واقعياً منطقياً. وإذا نظرنا إلى مورغان كشاعرة وصحافية وناشطة في حقوق المرأة وروائية فإننا لا يمكننا اتهامها بالسذاجة السياسية أو الفكرية في ما يتعلّق بالنتيجة التي توصّلت إليها. فقد خلصت إلى أن «طاقة الذكاء الجنسي النسوي المحرّرة من عاشق الشيطان (أي الإرهابي)، متضافرة مع أعدادنا كأغلبية (النساء) وحنكتنا التكتيكية الفطرية المتنامية، يمكن أن توصلنا إلى هناك. وهذا يعني نهاية الإرهاب، أسبابه وتأثيراته وتكاثره الذاتي،لأنه يعني نهاية النشاط الجنسي للإرهاب ـ الذي منح العنف قوّته كي يحطّمنا جميعاً».

–لا يمكن اعتبار «عاشق الشيطان» كتاباً سلساً للقراءة فهو يحتوي على معلومات كثيرة وأفكار متضاربة ومستفزّة، لن يتفق الكثيرون من القراء معها، لكن هذا ما يميز الكتاب من حيث هو فضاءٌ للتفكير وعدم التسليم بالأفكار المسبقة. وما يؤخذ على الكتاب بشكل خاص الإيحاء أن الصراع قائم بين رجال عدوانيين في المطلق ونساء مسالمات في المطلق. فتقول مورغان في هذا السياق أنه لا يمكن إنكار حقيقة أن التاريخ هو سجلّ لغالبية من النساء اللواتي اتسمن بسلوك مسالم ولغالبية من الرجال الذين تميّز سلوكهم بالقتال في الحروب والعدوانية إلى حدّ باتت تُعتبر فيه الروح القتالية والعدوانية مكوّناً أساسياً للرجولة كما باتت النزعة للاسترضاء سجيّة أو طبيعة خاصّة بالنساء.

صحتك

للنساء... القهوة تحمي الذاكرة

إعداد ـ تهاني العبد

أكدت دراسة فرنسية حديثة في مجلة نيورولوجي المتخصصة أن تناول ثلاثة فناجين من القهوة يومياً يحمي ذاكرة النساء فوق الخامسة والستين.

وتناولت الدراسة، التي أجراها المعهد الوطني الفرنسي للصحة والأبحاث الطبية بالتعاون مع جامعة لشبونة، العلاقة بين تناول الكافيين والأداء الذهني.

وأوضح فريق البحث ـ الذي شمل ٤١٩٧ امرأة و٢٨٢٠ رجلا فوق سن الخامسة والستين ـ أن للعمر أيضاً تأثيراً على النتائج حيث استفادت من فوائد القهوة البالغات ٨٠ عاما أكثر من أخريات يصغرنهن بـ ١٠ إلى ١٥ سنة.

ووضع الفريق المكون من باحثين بوحدة أمراض الجهاز العصبي بالمعهد بالتعاون مع مختبر العلوم العصبية بجامعة لشبونة نموذجا إحصائياً انطلاقاً من نتائج جمعت لمدة أربع سنوات بثلاث مدن فرنسية هي مونبلييه وديجون وبوردو من هذه المجموعة التي تشمل سبعة آلاف شخص.

وبعد أخذ كل العوامل الأخرى التي يمكن أن تؤثر على الأداء الذهني في الاعتبار مثل السن والتعليم وضغط الدم وأمراض القلب والإكتئاب العصبي وأنواع العجز أتاح هذا النموذج الإحصائي التوصل إلى أن للكافيين تأثيرا واقيا بالنسبة للنساء فقط.

كون الكافيين لم ينفع سوى النساء قائلة إنه من الممكن أن تكون عملية التمثيل الغذائي للكافيين مختلفة لدى المرأة عنها لدى الرجل أو ربما يكون هناك تفاعل هرموني. إلى ضرورة توضيح الآلية البيولوجية لتقييم مدى فائدة علاج يستند إلى الكافيين.

وتعرف مادة الكافيين الموجودة في القهوة بكونها منبها فقط، لكن نتائج هذه الدراسة تنسب إليها مفعولا طويل الأمد وأكثر أهمية.

لكن الدكتورة كارين ريتشي مديرة الفريق الباحث تحذر من التسرع في الحكم على الكافيين، وتقول انه يجب الإلمام بتأثيره على الدماغ بشكل دقيق قبل الترويج له.

وفيما يخص علاقة الكافيين بالخرف، تقول الخبيرة أنه من الضروري إجراء دراسة أعمق للتأكد من مفعول المنبه في هذا المجال، وأعربت عن اعتقادها أن الكافيين يبطيء الإصابة بالخرف دون الحماية منه.

ولا يعرف بالضبط سبب عدم نجاح عمل الكافيين عند الرجال، لكن الدكتورة ريتشي قالت أن أجسامهم ربما تتعامل معه بشكل مختلف.

ومن جهتها قالت ربيكا وود مديرة معهد دراسات مرض الزهايمر ببريطانيا أن كل الدراسات في مجال الحماية من الأمراض العقلية مهمة للغاية خاصة وأن لا علاج لها، وأنها مرشحة للإنتشار بشكل أكبر في المستقبل.

هو و هي ٩

شمعة الآمال

جليلة الجشي

عاشت طفلة بلا طفولة، وصبا مشحوناً بالشتات، مثل أي لاجيء فلسطيني، تنقلت بين البلدان، بعد زواجها بذاك الرجل الذي يعاني من غيبوبة أخلاقية، وعلى مدار ثلاثة وعشرين عاماً تحملت غيبوبته، وصبرت من أجل أطفالها الثلاثة. إلى أن داهمها المرض الخطير اللعين، والمعروف بالخبيث، تم بعد ذلك استئصال ثلاثة أرباع كبدها، وترك لها الأطباء الربع، تكابد معه وجع ما تبقى لها من سنين، وكان للزوج الدور الذي يليق بعقوقه، فطلقها قبل مغادرتها المشفى.

هاجمتني رياح التشاؤم وحملتني إلى شاطىء اليأس وأنا أتابع أخبار صديقتي وحبيبتي التي سكنت الغربة، إلى أن سافرت إليها أواكب معها صبرها الجديد على المرض، وأتابع حالتها الصحية ومقارعتها «الكيموثيربي»، وتحدّيها المذهل لأمنياتها المستحيلة، والتي باتت بفضل إرادتها الصلبة وتماسكها وحبها للحياة أمنيات ممكنة. وبعون الله شفيت تماماً، واستعاد الكبد نموه وعافيته من جديد، وذبحت الخراف وفاء لنذر الأحبه الذين صلّوا وواصلوا الدعاء ليل نهار. إلا أن المرض عاد إليها، ليسكن هذه المرة في القنوات الصفراوية، والتي لا يمكن استئصالها، والاكتفاء بالمعالجة الكيميائية، وبشيء من التوجس، سألت طبيبها الأجنبي صريح الملامح واللسان، كم تبقى لي من العمر؟ قال بدون تحفظ: «في مثل حالتك سنتين مع المعالجة الكيميائية، وسنة ونصف بدون المعالجة»، ضحكت وقالت بالعربية: «بإذن الله سأعيش أكثر منك» وغادرت المكان، بكيت أنا بصمت ونظرت إليها وفي أعماقي أشعر بأني أريد أن أخفيها في قلبي، اخبئها من الموت، أحاطني الخوف عليها واحتلني ذعر الفراق القادم، هرب مني تماسكي، تصنّعت ابتسامة بالكاد تمكنت من رسمها فوق شفتي، فردت عليّ بابتسامة عريضة واثقة، وأمسكت يدي وهي تردد المثل الشعبي القائل: «اللي الو عمر لا تقتله شدّة».

إنها «أمل»، التي لوحت لها الأفراح بالوداع، وزرعت في طريق عمرها صنوفاً من الآلام، لكنها بصلابتها وإرادتها، هي الأخرى لوّحت للأحزان بالوداع، فبدت أكثر تفاؤلاً وأكثر صلابة وتحدّياً، فكانت تتزين وتتجمل، وتجمّل منزلها الصغير الذي منحتها إياه دولة «الغربة». إنها «أمل» تلك المرأة الجميلة ممشوقة القوام، ابتسامة لا تفارق محياها، أنيقة تكاد وأنت تجالسها، وللوهلة الأولى، قد تحسب بأنها تدّعي المرض، تتابع حياتها بإشراقة متجددة، وبإطلالة جعلتني أغير اسمها وأطلق عليها اسم «آمال»، بدلاً من «أمل»، وبفضلها غيرت نظرتي التشاؤمية للحياة، بعد أن كانت أصغر الأمور تقودني إلى الإحباط، وأنا التي ذهبت إليها أواسيها، وجدتها تواسيني، جعلتني أرسو بكل أفكاري على ميناء التفاؤل، حتى بات الطريق أمامي أكثر رحابة للالتقاء بسعادة مرتقبة.

هي آمال، تقود سيارتها من مدينة إلى أخرى، قاطعة مئات الكيلومترات أسبوعياً لتصل إلى المشفى، وبخطى واثقة بالشفاء، تتألق على كرسي العلاج وتمد يدها لطبيبها، يغرس الإبره في الوريد ليسري المصل في الجسد العنيد، وهي تتمتم باسم الله «يا شافي، يا عافي»، تحافظ بدقة متناهية على مواعيد جلسات علاجها، مثلما تتابع بشغف أخبار الطب الشعبي، لم تترك شاردة ولا واردة عن التداوي بالأعشاب إلا وداوت نفسها. وها هي المدة التي حددها الأطباء لبقاء ضيافتها على الحياة شارفت على الانتهاء، وأمل جمعت آمالها متوعدة مرضها بالانتصار عليه، وقد بدت صحتها تتحسن وبشكل متسارع، وقريباً ستطفىء أمل شمعتها الأربعين لتضيء شمعة آمال جديدة في عمرها القادم بإذن الله.

هموم عادية!!؟

بقلم: عطاف يوسف

مطر وحزن وزيتون

هل يستطيع المطر غسل الأحزان كما غسل الزيتون؟ الأسبوع الماضي بدأ بقسوة شديدة أحزنتنا حد الفجيعة، حمل لنا نبأ موت الزميلة والرفيقة مها نصار، فارقتنا جسداً، لكن من الصعب أن تفارقنا روحاً ومسيرة حياة. كانت متميزة في كل شيئ، بسيطة وعنيدة في الدفاع عن حق الفلسطينيين في الوجود، وفي نيل حقوقهم كاملة غير منقوصة، وفي الدفاع عن حقوق النساء في المساواة والحياة والتمتع بكافة الحقوق، كانت تتصل بي كلما تعرضت امرأة لانتهاك لأي من حقوقها، وأذكر أنني صادفتها مرة في مقر الطاقم، كانت فرحة بحفيدتها الأولى، لكنها كانت مستفزة حد البكاء، وأخبرتني قصة تلك المرأة التي صادفتها في المستشفى، بينما كانت ترافق ابنتها حنين أثناء ولادتها، تلك المرأة كانت تتحمل بصبر أيوب آلام المخاض دون أن تصرخ ولو صرخة واحدة، ذلك أن زوجها كان يقف بجانبها ويمنعها من الصراخ، ويهددها إن صرخت سيكون مصيرها الطلاق، وعدتها بأن أكتب ووفيت بوعدي وكتبت.

في الأيام الماضية كانت أشجار الزيتون المحاذية للشارع الواصل بين قريتي كفر نعمة وراس كركر تشعرني بالحزن، حيث كانت مثقلة بالغبار، خاصة وأن الشارع ضيق ومليء بالحفر، وأحزنني أيضا بدء المزارعين بقطف ذلك الزيتون المغبر قبل نضجه، فكان الغبار يكسو وجوه القاطفين المتعبين من القطف وأشياء أخرى.

نزل المطر ليلاً وفي الصباح الباكر، وعندما مررت من ذلك الشارع الذي أكرهه، رغم أنه أصبح المنفذ الوحيد لعدة قرى من بينها قريتنا، بعد أن قام المستوطنون والجيش الاسرائيلي بإغلاق الشارع الرئيسي، الذي كان يصل بين قريتي الجانية وراس كرر وقرية دير ابزيع دون الاضطرار للمرور في كفر نعمة، وذلك حفاظا على أمن المستوطنين، الشارع يبدأ من الجهتين نزولاً حتى "واد الدلب"، ذلك الوادي المشهور بغزارة مياهه في فصل الشتاء إذا كانت الأمطار وفيرة، لذلك فإن الإسفلت في كل عام يتم جرفة بالمياه فيضيق الشارع، ويصبح خطِراً، وهو لا يتسع لسيارتين متقابلتين، فإذا التقت سيارتان صاعدة وهابطة، على إحداهما النزول عن الإسفلت، وإتاحة المجال للسيارة الصاعدة، هذا إذا كان السائق الآخر يتحلى بالذوق والأخلاق، لكن هناك من السائقين من هم من ذلك براء.

كانت الأشجار مغسولة، وقد تخففت من عبئين إثنين، حبات الزيتون والغبار فبدت تتمايل بفعل الريح، ربما هي فرحة بنظافتها، وربما هي كالبشر تشعر بالانتعاش بعد الحمام.

المزارعون الفسطينيون هذا العام استعجلوا في بدء موسم الزيتون لعدة أسباب، أولها عطلة عيد الفطر، وثانيها عطلة الأعياد اليهودية، التي تمنح العمال داخل الخط الأخضر فرصة المساهمة في قطف الزيتون ومساعدة عائلاتهم، لذلك ما أن بدأت تلك العطل حتى سارعوا لقطف ثمار الزيتون رغم أنها غير ناضجة، وكميات المطر التي سقططت هذا العام لم تكن كافية هي أيضاً لا لغسل الثمار ولا لريها لتنضج بشكل أفضل.

أصحاب الزيتون المحاذي للمستوطنات لم يتمكنوا من الاستفادة من عطلة الأعياد اليهودية، ولا يستطيعون الاستفادة من العطل الأسبوعية الفلسطينية، فيومي الجمعة والسبت محرم فيهما على الفلسطينيين الاقتراب من المستوطنات، حتى لا ينتهكوا حرمة السبت بسياراتهم، وبذلك ضاعت عليهم الفرصة، وأصبح قطف الزيتون من اختصاص كبار السن والأطفال.

هذا عدى عن الاعتداءات المتواصلة التي يقترفها المستوطنون بحق المزارعين وبحق شجرة الزيتون نفسها. وهي اعتداءات متواصلة تصل حد القتل أحياناً.

ولا يقتصر الأمر على الايذاء الجسدي للمزارعين واقتلاع الأشجار، فقبل يومين ذهب أهلي لقطف عدد من أشجار الزيتون المحاذية لإحدى المستوطنات، لكنهم عادوا بعد ساعات قليلة بخفي حنين، يحملون خيبتهم وقهرهم بدل الزيتون، حيث وجدوا الأرض تطفح بمخلفات المستوطنين القذرة، ووجدوا أن عدداً كبيراً من أشجار الزيتون قد جف بفعل مياه المجاري.

هذا الموسم بدأ المطر مبكراً وهو يبشر بالخير إذا استمر، وموسم الزيتون هذا العام ليس ماسياً، فهل سيكون العام القادم أفضل على كل الصعد، وتعيش فلسطين عاماً يخلو من الحزن وشح الأمطار، ويكون ماسيا؟ أم سيستمر جفاف الأمطار والنفوس لننحدر إلى الأسفل في طريق وعرة، تشبه الطريق التي علي أن اسلكها مرتين يومياً؟

itaf1957@yahoo.com

تصدر صحيفة صوت النساء بتمويل كامل من مؤسسة كونراد اديناور الألمانية.

■ أيماناً من مؤسسة كونراد اديناور بحرية الرأي والتعبير والحق في حرية الحصول على المعلومات، فان ما يرد في صحيفة صوت النساء لا يعبر بالضرورة عن وجهة نظر المؤسسة أو يتفق معها. والمؤسسة تعتبر غير مسؤولة عن كل ما ينشر في صحيفة صوت النساء.

Sawt al- Nissa' is fully funded by Konrad Adenauer Stiftung (KAS) Ramallah

■ Based on KAS's belief of freedom of opinion and expression and the right of freedom of receiving information, what ever published in Sawt al- Nissa' does not necessarily reflect KAS's opinion and is not necessarily agreed upon. Therefore KAS is not responsible for what is published in Sawt al-Nissa'.

Konrad Adenauer Stiftung

للإتصال أو للمراسلة

طاقم شؤون المرأة

المشرفة العامة : روز شوملي مصلح

المحررة المسؤول: لبنى الأشقر

شارع الإرسال – مركز عواد

ص.ب : ٢١٩٧ رام الله

هاتف : ٢٩٨٦٤٩٧ – فاكس: ٢٩٦٤٧٤٦

بريد الكتروني: (watc__media@palnet.com)

الآراء الواردة في الصحيفة تعبر عن رأي اصحابها

تطبع في مطابع الايام